تأملات في

البواعث النفسية للإلحاد

تأملات في

البواعث النفسية للإلحاد

رشود عمر التميمي

(ح) دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التميمي ، رشود عمر

تأملات في البواعث النفسية للإلحاد / رشود عمر التميمي- الرياض ، ١٤٣٧هـ

١٢٠ ص ؛ .. سم

ردمك : ٤-٥- ٩٠٥٤٠-٦٠٣- ٩٧٨

١- الإلحاد والأديان ٢- المذاهب المنحرفة أ.العنوان

ديوي.٣٢٠.٩ ١٤٣٧/٠٢٠٠٩٣٠٣٦

جميع الحقوق محفوظة

مركز الفكر المعاصر

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ

markazalfekr@hotmail.com

هاتف ٠٠٩٦٦٥٩١١٠٤٤٩٢

سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا
وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ
ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦

سُورَةُ الأَعۡرَافِ

جدول المحتويات

تمهيد	٩
تعريفات مختصرة	١٣
الملحد (atheist)	
اللاأدري(agnostic)	
الربوبي (deist)	
اللاديني (secular)	
الفطرة السوية	١٧
أسباب نفسية ومشاعر تدفع للإلحاد	٢٠
ما هو الهوى؟	
التخلص من التكاليف	
هل الإيمان إشباع نفسي؟	
الخوف من عودة العهد الكنسي	
الدافع النفسي لما يسمى باللاتوافقية (anti-conformity)	
السلوك التعويضي	
ثنائية الانبهار والاحتقار	
عبادة الأشخاص	
التعلق بنظرية التطور	
التفسير العلمي للظواهر	
نقص الإيمان والشعور بالظلم	
نظرية بول فيتز (متلازمة الأبوة الناقصة)	٣٩
مجموعة التجربة	
المجموعة الضابطة	
استثناءات النظرية	

ملاحظات على نظرية فيتز	٥١
لفظة «الأب» في الديانة النصرانية	
النظرية في سياق نصراني	
جوانب لا علاقة لها بمفهوم «الأب النصراني»	
خلاصة الملاحظات على تفسير فيتز	
الملحد عبد الله القصيمي	٥٧
نبذة عن مسيرته الفكرية	
القصيمي نموذجا لنظرية فيتز	
الملحد إسماعيل أدهم	٦٥
المتاهة الإلحادية عند أدهم	
إسماعيل أدهم ونظرية فيتز	
مرحلة تشكيل اللاوعي	٦٩
كشف المغالطات المنطقية	٧٥
الاستدلال المنطقي	
المغالطات المنطقية	

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أحدثت مقالة في صحيفة واشنطن بوست في ٢٣ مايو ٢٠١٣م ضجة كبيرة داخل المملكة وخارجها، وكانت تتحدث عن إحصائية حول انتشار الإلحاد في بلدان العالم، قامت بها مؤسسة غالوب (WIN/Gallup)، وورد في هذه الإحصائية أن ٥٪ من سكان المملكة ملحدون.

وقد قمت حينها بتتبع تفاصيل هذه الإحصائية وطريقة جمع بياناتها والقائمين على ذلك، فوجدت أن الشخص الذي قام بإرسال البيانات إلى غالوب لم يكن موظفا حينها في المؤسسة المتعاقَد معها لجمع البيانات، ولم تكن لديه صفة رسمية، ولم يكلف نفسه بجمع المعلومات ميدانيا، وإنما كان يقيم في تونس.

وعلى أية حال فالعيوب في تلك الإحصائية العبثية كثيرة، كنت قد جمعتها ونشرتها في الإنترنت في حينها. وهذه المؤسسة لا تمت بصلة لمجموعة غالوب Gallup الشهيرة في واشنطن، وهذا ما ذكرته صحيفة الواشنطن بوست في المقال نفسه.

ولكن رب ضارة نافعة كما يقال، فقد ازداد الحراك الدعوي على المستوى الإعلامي وكذلك في وسائل التواصل الاجتماعي، وسُلطت الأضواء على تلك الشريحة الملحدة الهجينة التي زاد لغطها بعد الخبر فصار صوتها أكبر من حجمها، وكان هناك عدد من الناشطين الذين أبلوا بلاء حسنا ولله الحمد، فحصلت نتائج جيدة خصوصا مع بعض الشباب والفتيات المتأثرين بطروحات الملحدين، والذين يتأرجحون في شكوكهم

بعد أن تلقوا ما يبثه الملاحدة في تويتر وفيسبوك على نقص في العلم الشرعي لديهم.

وقد لاحظت من خلال التواصل مع بعض من خالطهم الشك أن الغالب منهم قد دخل غمار هذه المواضيع لكي يرد على الملحدين دون أن تكون لديه الدراية الكافية في أساليب النقاش التي يجب أن تستخدم معهم، أو في الوعي والتنبه لمكرهم، فهم يتواصون فيما بينهم بالتركيز على إثارة شبهات على المسلم كتلك الشبهات التي كان يثيرها المنصرون، ويكثرون من سؤاله عن تفاصيل الغيبيات وإثباتها، ويسعون لوضعه في موقف دفاعي باتهامه بالإرهاب والحديث عما يفعله الخوارج على أنهم يمثلون الإسلام.

وكل ذلك لكي يبقى المسلم محصورا في الزاوية يدافع عن دينه ولا يجد مجالا لمطالبة الملحد بالأدلة على صحة إلحاده، فيبقى المسلم مدافعا حتى يرهق ويترك النقاش، مع أن النقاش في هذه الشبهات لا علاقة له إطلاقا بالإلحاد، لكن هذا هو الأسلوب الخبيث الذي يتواصى به الملاحدة فيما بينهم كما ثبت موثقا في بعض مراسلاتهم.

وكنت أوصي دائما من يناقش الملحدين أن لا يتطرق أبدا لمسألة الشبهات التي يثيرونها، ولا حتى لمسألة الأسماء والصفات، وإنما يكون نقاشه منصبا على مسألة وجود الخالق، فإذا حُسمت هذه المسألة فإنه يمكن الانتقال إلى ما بعدها، إذ لا فائدة من نقاش مسألة وجود الشر مثلا قبل أن تحسم مسألة وجود الخالق، أو أن تناقش صفات الخالق سبحانه قبل أن تناقش وجوده.

وأصعب سؤال يمكن أن يواجهه الملحد هو إثبات دعوى الإلحاد. فلا يمكن لملحد أن يثبت عدم وجود الخالق على الإطلاق لا بالدليل العلمي ولا بالدليل العقلي، وإنما يعتمد بعض الجهلة من الملحدين على

مغالطة منطقية تسمى مغالطة الجهل (Fallacy of Ignorance)، فيقول إن عدم وجود الدليل على وجود الخالق هو دليل على عدم وجود الخالق. ومع أن الدليل العقلي موجود ومشهور، إلا أن هذا الاحتجاج في حد ذاته مغالطة، فعدم وجود الدليل ليس له أية فائدة سواء في النفي أو الإثبات، ولو صح ذلك لصح أن نقول على سبيل المثال إن المجرات المرصودة التي يصل عددها الآن إلى ٢٢٥ مليار مجرة لم تكن موجودة قبل مائة عام؛ إذ لم يكن لدينا دليل على وجودها حينذاك، ولم نكن نعرف سوى درب التبانة! ولهذا فإنك تجد بعض الملاحدة المتمرسين في الجدال لا يقطعون بعدم وجود الخالق هروبا من تحمل عبء الدليل، ومنهم دوكنز، فهم في الحقيقة أقرب إلى اللاأدرية منهم إلى الإلحاد.

وقد يرى البعض أنه ليس ثمة حاجة للانصراف إلى محاربة ودحض الإلحاد، فالإلحاد ترفضه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإنما كان الواجب صرف الجهد إلى إثبات الوحي والنبوات والشرائع.

ومع وجاهة هذا الرأي، لكنه لم يعد اليوم رأيا واقعيا، فالفطرة الآن يجري تغييرها وتشويهها على نطاق واسع قد لا يدركه إلا من يتابع وسائل الإعلام والنشر والثقافة المعاصرة الأجنبية. بل إن النفس الإلحادي يغلب توظيفه أحيانا في الطرح العلمي، ولهذا أسباب سنتطرق إليها بإذن الله في ثنايا هذا البحث.

ونظرا لطبيعة التواصل الثقافي اليوم بين المجتمعات المسلمة وغيرها، وتسرب كثير من المفاهيم المتعلقة بالإلحاد أو الداعمة له- كنظرية التطور مثلا- وسهولة نشر الإلحاد عبر وسائل التواصل الاجتماعي كما يرى المتابع، فإن الحاجة ماسة إلى التركيز على تأسيس الفطرة السوية وتثبيتها وإزالة ما يشوبها فيما يتعلق بوجود الخالق سبحانه وتعالى قبل كل شيء؛ إذ لا معنى لإثبات النبوة أو الوحي لمن ينكر وجود الله أصلا، ومن يرى أن

الإلحاد غير موجود في بعض أوساط الشباب، بغض النظر عن مدى انتشاره، فهو جاهل بالواقع، أو غير متعرض لتلك الشريحة التي لا يمكن ملاحظتها إلا عبر وسائل يستطيع الشاب الملحد والفتاة الملحدة عن طريقها إخفاء هويتيهما.

وبالطبع فإن النقاش مع الملحد حول الشبهات المطروحة عن الإسلام أو القرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم يعد ضربا من العبث وإضاعة الوقت والجهد إذا كان الملحد لا يؤمن بوجود الخالق أصلا، وإنما يجب أن تراعى في ذلك الأولويات، خصوصا وأن مواجهة الملحد في مسألة وجود الخالق أسهل كثيرا من مطاردته في دفع الشبهات. ولكن لا بأس من دفع تلك الشبهات مع إثبات وجود الخالق عند النقاش مع المتشككين من الشباب الذين لم يقعوا بالإلحاد بعد لأجل حمايتهم من الوقوع في حبائل الملحدين الذين لا يألون جهدا للتلبيس عليهم والإيقاع بهم.

سأتطرق في هذا الكتاب الموجز إلى الحديث عن الفطرة والدراسات التي تثبت أن البشر مفطورون على الإيمان، وسأقتصر في الحديث عن ظاهرة الانفصال عن هذه الفطرة على الجانب النفسي، فهو يأتي غالبا من دوافع نفسية بعيدة عن الحجة والنظر العقلي. ثم أتطرق إلى دراسة البروفيسور بول فيتز حول متلازمة الأبوة الناقصة، ثم آتي بمثالين للإلحاد من العالم العربي، ثم أورد تحليلا يوضح سبب القابلية للتأثر في مراحلة الطفولة المبكرة، وسأورد أخيرا أهم المغالطات المنطقية التي يستخدمها الملاحدة في ترويج الإلحاد، إذ أن محاصرة الطرح الإلحادي بالحجة العقلية كفيل بكشف التلبيس والتدليس والأساليب النفسية التي يطبقها الملحدون للإيقاع بضحاياهم.

ليس الإلحاد بمفهومه الدارج اليوم مصطلحا قرآنيا، ولم يكن متداولا في كتب العلماء الأوائل، وإنما أقرب ما يقابله عندهم لمن ينكر الخالقية مصطلح «الدهرية»، وأصله من قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية ٢٤]. وعلى ذلك فإن وصف «الدهرية» كان يطلق غالبا عند الأقدمين على القائلين بقدم العالم.

وأما لفظة «الإلحاد» بالمفهوم القرآني الوارد في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت ٤٠]، وفي قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠]، فهي تنصرف إلى معان أخرى لا تنحصر بالضرورة في إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى، وإنما تعني الميل عن الحق، أو وضع الكلام على غير مواضعه كما قال ابن عباس، وقد يراد به لغط وتكذيب واستهزاء المشركين بالقرآن.

ولعلنا قبل الولوج في مناقشة الجوانب النفسية للملحد نتعرف على بعض التصنيفات التي ترتبط عادة بالإلحاد حسب مفهومه الدارج اليوم، وقد يحصل الخلط فيها عند العامة بين الملحد وغير الملحد، وسيكون الطرح- كما هو عموما هنا- بعيدا عن التنظير الأكاديمي، إذ يهمني ذلك السواد الأعظم من عامة شباب المسلمين سواء كانوا من المبتعثين للدراسة في بلدان غير إسلامية أو ممن يتعرض لشبهات الملحدين التي تُصدّر إليهم عبر برامج التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام. فإن مخاطبة هؤلاء الشباب أولى عندي في هذا الكتاب من مخاطبة الباحثين والأكاديميين.

الملحد (atheist)

الملحد السلبي (negative - weak) هو الذي لا يؤمن بوجود الخالق لأنه لا يرى دليلا على وجوده، ولهذا فهو لا يدعي عدم وجوده ولكنه يميل إلى ذلك، وهو بهذا أقرب إلى اللاأدرية، وأما الملحد الإيجابي (positive - strong) فهو الذي يؤمن بعدم وجود الخالق ويدعي عدم وجوده.

اللاأدري (agnostic)

هو الذي يرى أن وجود الخالق (والغيبيات عموما) غير معلوم، وقد يتجاوز ذلك إلى القول بأنه لا يمكن العلم به أو التأكد منه. ومدعو اللاأدرية العرب تجدهم غالبا يسخرون من الأديان، ولكن عند مناقشتهم حول الربوبية فإنهم يدعون عدم اكتراثهم أصلا بوجود الخالق أو عدمه، وهذا بلا شك نوع من الغفلة؛ إذ أن عدم اتخاذ أي موقف هروبا من المواجهة وتحمل عبء الدليل لا يتوافق مع الانشغال ليلا ونهارا في محاربة الدين.

الربوبي (deist)

هو الذي يؤمن بوجود الخالق لكنه لا يؤمن بالأديان أو الوحي أو الرسالات، ويرى أن الخالق خلق الكون وخلق القوانين وتركه يسير عليها دون تدخل. وقد لاحظت أن أكثر هؤلاء ممن تعرض لمواقف مؤذية أو معاناة قديمة أو اضطهاد، أو لديهم هوى للتخلص من التكاليف والأحكام الدينية.

وينفصل الدين الربوبي في الغرب عما تقرر لدى المسلمين من الإيمان بالربوبية من حيث أن توحيد الربوبية إقرار بديمومة وسيرورة الخلق والتدبير لا ينصرف عنه الوجود طرفة عين، وهذا شواهده في نصوص

القرآن والسنة كثيرة، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر ٤١]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» . رواه أبو داود والنسائي في السنن الكبرى، وابن حبان وصححه، وحسنه الألباني. في حين أن الدين الربوبي يقول بأن الوجود مكتف بنفسه بعد الخلق الأول، والخالق في نظرهم عاطل عن كل صفة كمال إلا ما يتعلق بالخلق الأول، ويتبع ذلك اعتقادهم بنفي الوحي والنبوات وعدم الإقرار بالقدر والتقدير القديم وإنكار البعث والنشور والحساب.

اللاديني (secular)

قد يسمى أحيانا «علمانيا» ويطلق عليه في دول المغرب العربي وصف (لائكي) نقلا عن المصطلح الفرنسي، وهو ينكر الأديان أو يرفضها أو يقيدها ضمن حدود الحياة الخاصة للفرد دون المجتمع، وهو موقف يتعلق بالأديان، وخصوصا التشريع، وليس بوجود الخالق، ولهذا فقد يكون العلماني ملحدا أو لاأدريا أو ربوبيا. وقد يكون له تعلق بشعائر الدين الظاهرة، لكنه لا ينفصم عن الكفر ما دام ينكر حاكمية الوحي على العقل والحياة.

وتلتقي مذاهب الإرجاء المعاصر في مجتمعات المسلمين في كثير من مظاهرها مع اللادينية، ولا يدفع في هذا السبيل غالبا إلا علماني محض متذرع بالسياسة، ومن هذا الباب كانت السياسة اليوم مدخلا لتمرير اللادينية على الناس، ثم تجاوزت إلى تشريعات تخرق ناموس الفطرة كالشذوذ الجنسي والسحاق والزنا.

على أن من المهم جدا عند الحديث عن هذه التصنيفات أن نتنبه إلى أنها لا تتداخل مع الإسلام أبدا، فمن ارتكب ناقضا من نواقض الإسلام

فقد خرج منه، وجميعهم في الخروج من الإسلام والإيمان سواء، ويستوون بكل حال في الدنيا في الحكم والمعاملة، ولا يختلفون في الآخرة إلا برتبهم في جهنم كما قال تعالى في المنافقين ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء ١٤٥].

الفطرة السوية

تخلص بحوث علمية كثيرة إلى أن الإيمان بالخالق هو الأصل في الطبيعة الإنسانية، وأن الإلحاد إن حصل فهو اعتقاد طارئ عليها، يأتي من الخارج ليزيح الإيمان الأصلي ويحل محله. وهذا يتوافق تماما مع ما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه... الحديث.» رواه البخاري.

تقول الدكتورة اوليفيرا بتروفيتش، المتخصصة في البحوث النفسية حول الأديان بجامعة أكسفورد:

«إن عالمية بعض المعتقدات الدينية (كالإيمان بإله خالق للكون غير متجسد) يمكن عزوها بوضوح إلى أساس تجريبي أكثر من كونها مستقاة من النصوص الدينية. وقد اتضح من البحث في المفاهيم الدينية السابقة أنها متسقة مع تلك الجوانب الأخرى من البحوث التنموية، تلك الجوانب التي توحي بوجود مسلمات معرفية في عدد من مجالات المعرفة الإنسانية»(١).

أما الدراسة التي أجراها البروفيسور روجر تريج Roger Trigg من جامعة أكسفورد أيضا فخلاصتها أن الإيمان الديني طبيعة بشرية. يقول البروفيسور تريج:

«إن الأطفال على وجه الخصوص يجدون أنه من السهل التفكير بطريقة دينية، كالإيمان بإله عليم بكل شيء»(٢)

---

(١) المصدر: Key Psychological Issues in the Study of Religion. Olivera Petrovich. psihologija, 2007, Vol. 40 (3), str. 351-363

(٢) المصدر: CNN website, May 12th, 2011, by Richard Allen Greene

وتورد صحيفة ميل أونلاين نتيجة الدراسة التي أجراها الباحث بروس هود Bruce Hood، بروفيسور سيكولوجية النمو بجامعة بريستول في بريطانيا، بأن الإيمان بالغيبيات مغروس في الدماغ منذ الولادة، ولذلك فإن الأديان تستمد قوتها من مصدر قوي[٣].

ومن أهم البحوث في هذا المجال ما قام به جستن باريت Justin Barrett الباحث المتقدم في علم الإنسان والعقل من جامعة أكسفورد، فهو يقول إن الأطفال الصغار لديهم القابلية المسبقة للإيمان برب، لأنهم يعتبرون أن كل ما في هذا العالم مخلوق لسبب. ثم يذكر أن الأطفال لديهم إيمان حتى لو لم يتلقوا تلقينا بذلك عبر المدرسة أو الأهل، ويقول:

«لو تركنا أطفالا لوحدهم على جزيرة فنشأوا بأنفسهم فإنهم سوف يؤمنون بالرب»[٤].

وللباحث كتاب شهير حول الموضوع هو Born Believers (المولودون وهم مؤمنون).

ويمكن أيضا ملاحظة هذا الميل الإيماني الفطري عند البشر من خلال دراسة أديان ومعتقدات السكان الأصليين الذين لم يخالطهم أحد، كالسكان الأصليين في أستراليا (aborigines). ومن أوضح الأمثلة على ذلك اعتقادات قبائل الكاباوكو الذين عُثر عليهم في مقاطعة بابوا (Kapauku tribes of Papua) في غينيا الجديدة قرب إندونيسيا، حيث لم يعلم أحد عن وجودهم إلا في العشرينيات من القرن الماضي. وعندما بُحثت أحوالهم ومعتقداتهم وُجد أنهم يؤمنون أن الخالق خارج السماء وأنه خلق كل شيء وأنه قدّر كل شيء منذ الأزل، وأنه لم يلد ولم يولد، وأنه لا يخضع للزمان

---

(٣)المصدر: Mail Online, 7 September 2009, by Arthur Martin

(٤)المصدر: The Telegraph Magazine, 24 Nov 2008, by Martin Beckford

ولا يتغير، وأنه قد خلق بجانب الخلق المحسوس كائنات أخرى غير محسوسة بعضها للخير وبعضها للشر.

ويمكن الاطلاع على معتقدات هذه القبيلة البدائية المعزولة من خلال ما جرى توثيقه عنهم في بعض الكتب المتوفرة التي يسهل الحصول عليها باللغات الأجنبية.

على أن من الثابت أنه ما من أمة إلا أرسل الله لها رسولا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[فاطر ٢٤]، وإنما مثل تلك القبائل الصغيرة العديدة المتناثرة في تلك الجزر قد يكون بعضها نشأ منقطعا بعد ختم الرسالات وانقطاع الوحي، فهي قبائل قليلة الأفراد، منقطعة ومعزولة في عاداتها وأفكارها وطباعها ولغاتها، والفطرة سابقة في الوجود على هداية الوحي والنبوات.

من ذلك كله يتضح أن الفطرة السوية التي تتماشى مع العقل هي الإيمان بوجود الخالق، وأن الإلحاد- وهو عقيدة أيضا ولكنها تنفي وجود خالق- إنما هو طارئ على الفطرة مشوهٌ لها، وهو بالتالي غير متوافق مع العقل، وبالتأكيد ما دام أنه مخالف للفطرة والعقل فإن له محركا ودافعا آخر غير العقل والفطرة، ولا يوجد أي دافع آخر غيرهما إلا الهوى بما يشوبه من نزعات النفس ورغباتها التي تتشكل استجابةً للشهوات أو وساوس الشيطان أو بعض المشاعر السلبية كالميل للانتقام والحقد القائم على فهم خاطئ لمشاكل الحياة وابتلاءاتها. وسوف نتطرق بإذن الله لهذا الجانب بشيء من التفصيل.

إن تشكيل السلوك والتفكير، كأي ظاهرة إنسانية أخرى، يبدو معقدا، ويصعب تحديد علله بدقة منضبطة كما هي الحال في الظواهر الفيزيائية أو القوانين الرياضية؛ فهو عملية واعية تؤثر وتتأثر وتقبل التغيير، وهو أيضا معرض للتأثر بالمجاملة والنفاق، ويصعب إطلاق الحكم الموضوعي عليه في بعض الأحيان من ظاهره، فالظاهر قد لا يكفي لإطلاق الحكم الصحيح، وإنما يلزم لذلك معرفة الدوافع والميول وراء ذلك. ولشيخ الإسلام ابن تيمية مثال ضربه على ذلك لمن قال «لا أرى في الوجود إلا الله»، فإن كان قائلها صحيح الإيمان قُبلت منه على أن الله هو الخالق المدبر للوجود، وإن كان قائلها من المبتدعة المؤمنين بوحدة الوجود فإن معناها ينصرف إلى أن المخلوقات هي عينها الخالق، وهذا كفر. فالبحث في جذور الاعتقاد والتفكير والسلوك أمر مهم لفهمها وتحليل دوافعها.

ولا يمكن التخلص من تأثير النوازع النفسية على صحة الأحكام والعقيدة والسلوك إلا بالنظر العقلي الخاضع خضوعا تاما للوحي، وهذا ما نراه في آيات كثيرة من القرآن الكريم تحض على تمحيص العادات والمعتقدات الموروثة وإخضاعها للنظر العقلي في سنن الله الشرعية والكونية. ولهذا الغرض سنورد في آخر هذا الكتاب استعراضا لأهم المغالطات المنطقية مع أمثلة لها.

ويتسم السلوك والتفكير بأنهما جزء لا يتجزأ من المكوّن الثقافي الذي يمكن أن تعتريه التغيرات سريعا بحسب وجود المؤثرات. قال صلى الله عليه وسلم: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا» (رواه مسلم).

لكن هل تنحصر صياغة الموقف الفكري والسلوكي في عنصري المعلومة والقدرة الذهنية على التحليل المنطقي فقط؟ الواضح أنه كلما اكتمل هذان العنصران فإن النتيجة تكون أكثر موضوعية وأقرب للصواب، ولكن هناك مؤثرا آخر هو الذي يحرف المسار الفكري والذهني عن الموضوعية وهو الهوى!

ما هو الهوى؟

الهوى لفظ جامع للميول والرغبات النفسية الدافعة للأقوال والأفعال والمقاصد المنحرفة عن الحق، سواء تمثلت تلك الرغبات بالشهوات الحسية أو السعي في حطام الدنيا أو الانتصار للنفس أو الدعة والراحة عن أداء الحق والعدل. وقد يكون الهوى ضربا من العُجب والغرور والكبر والزهو، وهي سمات غالبة عند الملاحدة، بل إنها أول ما يلفت نظر المتأمل من صفاتهم الشخصية؛ يلاحظها من يناقشهم أو يتابعهم في مواقع التواصل الاجتماعي، وهي بلا شك سمة واضحة أيضا في شخصيات رموزهم كعبد الله القصيمي.

وتتداعى في الإلحاد الطبائع والنفوس قبل أن تتداعي فيه الأفكار والعقول، ففي مقابل الاهتمام بالتفكر وإعمال العقل في آيات الله، نجد أن القرآن يحذر من اتباع الهوى تحذيرا شديدا ومتكررا:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية : ٢٣].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣]

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨]

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦]

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]

ولم يرِدِ الهوى في القرآن الكريم على إطلاقه إلا في معرض الذم كما قال ابن عباس، فمتبع الهوى لا بد أن يضل سواء كان عالما أو جاهلا. وهو في مجمله سعي في حظوظ الدنيا وتقصير في حق الدين، ولو تأملنا الآيات الواردة فيه لوجدنا أنه دائما يأتي في سياق الضلال والظلم والجهل.

والمتتبع لنصوص الوحي يرى بوضوح أن اتباع الهوى من أسباب طمس البصيرة والضلال، وهذا جزاء من جنس العمل، فالعاقل الذي يرى الحق فيتركه ويتبع هواه إنما جزاؤه أن تتعطل بصيرة عقله فلا يعي ما يسمعه من الحق، وهذا هو ما وقع للمنافقين في الآية التي ذكرناها (١٦ من سورة محمد)، فالمنافقون يحضرون بأجسامهم عند النبي صلى الله عليه وسلم وعندما يخرجون يسألون الذين أوتوا العلم من الصحابة ما الذي قاله صلى الله عليه وسلم قبل قليل! فقد طبع الله على قلوبهم لأنهم اتبعوا أهواءهم.

قال ابن تيميّة رحمه الله تعالى:

«أضلّ الضلّال هم أتباع الظّنّ والهوى، كما قال الله تعالى في حقّ من ذمّهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] وقال في حقّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم ١-٤]، فنزّهه عن الضّلال والغواية اللّذين هما الجهل والظّلم، فالضّالّ هو الّذي لا يعلم الحقّ، والغاوي الّذي يتّبع هواه، وأخبر عن نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أنّه ما ينطق عن هوى النّفس، بل هو وحي أوحاه الله إليه فوصفه بالعلم ونزّهه عن الهوى». (مجموع الفتاوى: ٣/٣٨٤)

التخلص من التكاليف

لا يمل الملحد من تكرار الحديث عن الحدود وعن تقييد الحريات، ولا شك أن هذا الميل للتحرر من القيود هو نوع من الانقياد للسبب الأصلي وهو الهوى.

قد لا يشعر الملحد بأن حديثه عن منع الاختلاط أو إقامة الحدود أو التكاليف بالعبادات لا يقوم من قريب أو بعيد على البحث عن الحق؛ وإنما هي رغبات وشهوات يحاول إلباسها لباسا عقليا زائفا لا يكاد يسترها، فتتعرى عند فحصها أمام الطرح العاقل البعيد عن الهوى.

ولهذا فإن من أفضل وسائل الرد على الشبهات هو كشف الشهوات من ورائها، فالشهوات هي المرحلة الأولى لتوليد الشبهات وترويجها، وإنما تنبت الشبهات وتنتعش على أرض الشهوات: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وهذا يؤكد أن الهوى هو المحور الرئيس في كل هذه الانحرافات العقدية والفكرية والسلوكية، وليس للحجة العقلية حظ في ذلك. ويمكنك أن تلمس ذلك لدى الملحدين إذا تأملت هروبهم الدائم من المناظرات، وأما إن برز من بينهم ملحد متغطرس يسعى للمناظرة فإن مصيره فيها بائس مخزٍ، ويكفيك أن تستعرض بعض المناظرات المكتوبة والصوتية والمرئية معهم في شبكة الإنترنت لتتأكد من ذلك.

ومن أشهر حالات الهروب من المناظرة هروب كبير الملاحدة ريتشارد دوكنز من مناظرة الدكتور وليام كريج عام ٢٠١١ ميلادية، حيث انتشرت تلك الصورة التي يظهر فيها كرسي دوكنز فارغا، وقام بعض الناشطين بوضعها في إعلان على باصات أوكسفورد مع لافتة تقول «لا يبدو أن هناك دوكنز، الآن دع القلق واستمتع بالحياة»، وهي رد على لافتة وضعها أنصار دوكنز سابقا على باصات المدينة تقول «لا يبدو أن هناك إله، دع القلق واستمتع بالحياة». ولم يترك كريج لدوكنز عذرا، فقد عرض عليه المناظرة في أي وقت يحلو له لاحقا، ولكن الملحد دوكنز لم يجرؤ على المواجهة.

هل الإيمان إشباع نفسي؟

من الطروحات النقدية الإلحادية القديمة التي كانت تتردد كثيرا ضد المؤمنين قول الملحدين إن الإيمان بوجود الخالق لا يقوم على بناء منطقي وإنما هم يؤمنون بالرب لأن هذا الإيمان يحقق لهما إشباعا نفسيا؛ فنحن نؤمن بالله- بحسب طرحهم- لأن هذا الإيمان مصدر راحة لنا.

وهذه مغالطة منطقية شهيرة تقوم على تحويل موضوع النقاش إلى موضوع شخصي، وتسمى (الشخصنة ad hominem)، كما سنرى في موضوع المغالطات المنطقية، وخلاصة هذا الطرح هي الحكم على صحة

الإيمان بناء على ما يعنيه هذا الإيمان لمعتنقه، وهو طرح بعيد عن الموضوعية.

لكن هذا لا ينافي بالطبع حقيقة أن الإيمان بالفعل هو مصدر راحة وطمأنينة للنفس وسكون للروح، فإنما الراحة والطمأنينة نتيجة للإيمان نابعة من موافقة الإيمان للفطرة، وليس الإيمان إشباع للرغبة بتلك الراحة والطمأنينة.

الخوف من عودة العهد الكنسي

لا شك أن الملحدين الجدد في العالم العربي، الذين يطلون برؤوسهم من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، إنما هم صدى للحركة الإلحادية الغربية، وتجد ذلك واضحا في ترميزهم لرؤوس الإلحاد في الغرب وتعظيمهم لهم، وهم بهذا ينسحبون من سياقهم الحضاري إلى سياق حضاري مختلف تماما، وحين يستوردون النقد الديني فهم لا يدركون الفارق بين السياقين.

تكاد الحركة الإلحادية تكون في أساسها عند الغربيين نتيجة مباشرة لمشاعر الخوف من تكرار الكهنوت الكنسي ومحاكم التفتيش وتسلط المؤسسة الكنسية خلال القرون الماضية. فكل توجه معاد للدين في الغرب هو تعبير عن الخوف البالغ لديهم من عودة الكنيسة، سواء كان ذلك بالتعبير الصريح عن المناداة بالإلحاد أو العلمانية أو الليبرالية، أو نشر السياقات التي تصب في صالح الابتعاد عن الدين والتشبث بها سواء كانت في ميدان العلوم البيولوجية كنظرية التطور أو في الميادين الأخرى كالاقتصاد أو الاجتماع أو علم النفس. وقد نلتمس شيئا من التبرير لديهم إذا قرأنا تاريخ الكنيسة وجرائمها في حق العلماء وفي حق مخالفيهم.

ومن أشهر ضحايا الكنيسة العالم جيرانو برونو الذي قال بأن الأرض ليست هي مركز الكون، فتم تجريده من ملابسه وربط لسانه وحرقه حيا أمام الناس في ميدان الزهور في روما عام ١٦٠٠ ميلادية. وهناك أمثلة عديدة غير برونو، ولكن من البلاهة البالغة أن ترى ملحدا عربيا يحارب الإسلام وهو يرفع شعارا لجيرانوا برونو وهو لا يعلم بأن الإسلام يحض على العلم ويعتبر البحث العلمي والنظر في الخلق ضربا من العبادة. والأدلة التاريخية كثيرة على حرص المسلمين على العلم، فأبو الريحان البيروني قاس محيط الأرض بدقة مذهلة قبل عصر برونو بأكثر من ستمائة سنة، وكان عالما معززا مكرما.

بل إن مما يثير العجب أن تترعرع بعض العلوم عند المسلمين في كنف أفراد مناكفين للدين والفطرة من فلاسفة الصابئة أو الدهرية الذين أنكروا النبوات في المجتمع المسلم، ومع ذلك لم تصادر الأمة علومهم النافعة بجريرة انطماس فطرهم عن الدين الحق، بل أخذت علومهم واستثمرتها من بعدهم في بناء المعرفة التراكمي، وإن تنكرت لعقائدهم وربما سعت في إتلافهم من أجلها. هنا نقف أمام ظاهرة الفرز المثيرة للدهشة لدى الأمة المسلمة في تفريقها بالتعامل بين علوم الضلالة والعلوم التي تثمر نفعا للإنسان.

ولهذا فإن قياس الدين بعامة على الديانة النصرانية، مع وجود الفارق الكبير، قياس فاسد، وما يبنى على ذلك من تصورات إنما هي تصورات فاسدة. فأقوال رجال الدين هناك لا يصح ردها، وهي تختلط بالنصوص لديهم، بينما في الإسلام كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا الوحيين.

ومن تبعات السياق الكنسي الغربي ما نلاحظه لدينا في الخطاب الليبرالي من استخدام تعبيرات- إما قصدا أو جهلا- مثل «رجال الدين» و «المؤسسة الدينية»، وغيرها من اصطلاحات علمانية قامت على أنقاض

ثقافة كنسية تعتبر الدين إرثا خاصا لها وللقائمين عليها، أما الإسلام فهو نور يشع على المسلمين كلهم، وهو حق لكل من اجتهد فيه وتعلمه وعلمه، وليس حكرا على أفراد من المسلمين دون غيرهم، وهو أيضا منهج حياة شامل لا تمثله مؤسسات بعينها. ولا يخفى على المراقب الحصيف أن الليبرالية لدينا هي مرحلة تمهيدية للإلحاد، فكل شاب ملحد لابد وأنه مر بمرحلة تأثر فيها برموز الليبرالية.

الدافع النفسي لما يسمى باللاتوافقية (anti-conformity)

اللاتوافقية هي أحد أنماط الشخصية المعروفة، وهي أسوأ كثيرا من عدم التوافقية (non-conformity)، ويمكن تعريفها باختصار على أنها الرفض النشط للأنساق الاجتماعية بهدف الظهور بمظهر متفرد. والهدف من تقمص هذه النزعة الشخصية هو الاعتقاد بأنها تزيد من النجاح في جلب الانتباه عن طريق التميز والتباين.

يقول هيمانت ميهتا Hemant Mehta، وهو مدون ومؤلف من نشطاء الملحدين، وله مشاركات في منتدى سكبتيكون الذي ترعاه منظمة الملحدين الأمريكيين، في تسجيل منشور له على اليوتيوب: «لا أرغب العيش في بلاد ملحدة، هذا يفقدني تفردي وهويتي! يمكنني الآن أن أتحدث وأن أنشر بتميّز، ولكن عندما يحيط الملحدون بي من كل جانب، وأصبح فردا غير متميز عن التيار، فيجب علي أن أبحث عن توجه آخر يصف نفسي ويميزها».

ومعلوم لدى المختصين النفسيين أن من الحالات التي تتضح فيها سمات هذا النمط من الشخصية حالة السعي للنجاح في لفت انتباه شخص مرغوب عن طريق استغلال أي فرصة للتميز عن المجموعة المشابهة، وهذا مظهر جلي من مظاهر السلوك اللاتوافقي.

فالملحد الذي تغلب عليه هذه السمة اللاتوافقية، ستكون احتمالية تراجعه عن الإلحاد أو تمسكه به عائدا لقوة هذه الرغبة لديه بالتميز وليس للنظر العقلي الموضوعي. وقد يكون هذا أيضا من أسباب هروب الملحدين من المناظرات على اعتبار أنها تقوم على المحاججة والدليل.

قد ترى ملامح هذا السلوك الذي ينبع من حب الظهور من وقت لآخر لدى أشخاص لا تتوقع أن يظهر منهم ذلك، ومن أشهر ما يمكن الإشارة إليه من هذه الحالات اعتذار «الدكاترة» زكي مبارك في مقدمة إحدى رسائل الدكتوراه التي أنجزها للإمام أبي حامد الغزالي عما قاله عنه في رسالته للماجستير من تجريح قائلا إنه كان يسعى للاستعلاء والظهور، وإنه لا يمكن الظهور إلا بطعن عالم في قامة الغزالي.

السلوك التعويضي

عندما تستعرض حسابات الملاحدة في برامج التواصل الاجتماعي فإنك ستلاحظ حضورا كثيفا وواضحا لألفاظ ومشتقات العقل وكذلك صور وشعارات الدماغ والمخ. بل إن من أشهر الوسوم المستخدمة في تويتر من قبل الملاحدة وسم «**#عقلانيون**»، وقد هجروه فترة من الزمن عندما جاءهم سيل من المشاركات التي تكشف زيفهم وابتدعوا وسم «**#عقلانيون_جدد**». والسؤال الآن هو: كيف يمكننا الجمع بين متناقضين: الاستعراض بالدعاية العقلانية لدى الملحدين وعجزهم في الوقت نفسه من الدفاع العقلي عن الإلحاد؟

السلوك التعويضي هو أسلوب يسلكه الفرد للتغطية على صفة غير مرغوبة لا يمكنه التخلص منها. وتغلب على هذا الأسلوب صفة المبالغة، فتجد أحيانا أن من يعاني من قصر القامة يميل إلى المبالغة في إظهار السيطرة والتسلط، ومن يشعر بخنوع كامن يظهر العدوانية والقسوة والمبالغة بالشجاعة، ومن يتعرض للإذلال من رؤسائه في العمل ينزع إلى

السيطرة والتحكم على مرؤوسيه، أو يبدي كثيرا من الوقار والفخامة في الأوساط الاجتماعية ليعوّض شيئا من النقص في بيئة العمل، ومظاهر السلوك التعويضي يمكن رصدها بوضوح في البيئة العسكرية نظرا لما تتسم به من شدة وصرامة. وقد يرجع السلوك التعويضي عند بعض الأفراد أحيانا إلى عوامل لا شعورية.

ولن تجد تفسيرا لملحد يفشل في الدفاع العقلاني عن موقفه ويهرب من المناظرات ثم يتقمص العقل ويجعل رمزه دماغا ذات تروس، وكأنه يجمع بين العقل والعلم، وهو في الوقت نفسه خالي الوفاض من كليهما، لن تجد تفسيرا لذلك السلوك سوى أنه سلوك تعويضي، خصوصا إذا لاحظت المبالغة الواضحة والإسراف في استخدام الصور والمفردات التي تتعلق بالعقل، في حين أنك لن تجد أي أثر لمثل هذه النزعة وهذه الشعارات في حسابات أشهر العقلاء والعلماء في برامج التواصل الاجتماعي.

بل إن من الطريف المثير للضحك ذلك الاهتمام بوضع صورة تعبيرية بالأبيض والأسود توحي بإهمال المظهر من شعر أشعث وأظافر مهملة وملابس رثة غير نظيفة، وكأن صاحب ذلك الحساب أحد العلماء المشغولين بالفكر والعقل والفلسفة عن الانتباه لشئون نفسه، وما إن تقرأ شيئا من كلامه حتى تكتشف أنه في واد والعلم في واد آخر!

ثنائية الانبهار والاحتقار

ومن الأسباب التي تساهم في تشكيل النفسية الإلحادية ما يصفه الدكتور محمد العوضي بثنائية الانبهار والاحتقار، ويقصد بذلك الانبهار بالحضارة الأجنبية واحتقار الذات.

فإذا كنا نتعرض يوميا لسيل جارف من إشارات التفوق المادي للحضارة الغربية في حين أننا نجهل عمقنا الحضاري في التاريخ ولا نعلم أن لغتنا كانت هي لغة العلم والطبقات الاجتماعية الراقية في أوروبا، ولا نعي التصور الإسلامي الصحيح للحياة والوجود، وربما كان أقصى اهتمامنا هو الفن والكرة، فإن النتيجة الحتمية هي برمجتنا لننبهر بتلك الحضارة الأخرى ونحتقر أنفسنا، ومعلوم في علم النفس والاجتماع أن المغلوب تابع للغالب سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

ولشيخ الإسلام كلام ثمين في تقليد الكفار بأعيادهم، أورده في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم». يقول ابن تيمية رحمه الله إن المرء «إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة بل عيدا فيضاهى بعيد الله بل يزيد عليه... وإن الله جبل بني آدم بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط.. فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المساوقة والتدريج الخفي... والمشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان.»

وعندما يكون ضعيف الانتماء الذي لا جذور له زاهدا بأمته وحضارته ودينه فسوف يصيبه الدوار من الصدمة الحضارية التي يعيشها، وسيكون من السهل عند تعرضه لسيل من الشبهات أن تهتز عقيدته ويتخلى عنها، نسأل الله السلامة وأن لا يكلنا إلى أنفسنا.

عبادة الأشخاص

ليس المقصود هنا هو العبادة التي تكتنفها الطقوس والصلوات، وإنما هي تحويل الشخص إلى مرجع لفهم الحياة، وقبول كل ما لديه دون نقاش أو تمحيص. وتظهر النزعة لعبادة الأشخاص تبعا لغياب فكرة الإله وميل النفس الإنسانية للعبودية، ويمكنك أن تلاحظ عند الملاحدة الجدد تقديسا واضحا للملحد دوكنز مع أخطائه المنطقية المضحكة، ولدى هذه الشريحة احتفاء شديد وتفنن بتمثّل شخصيته وصوره هو وبقية الرموز الإلحادية كعبد الله القصيمي.

غريزة التقديس تتحول للأشخاص والأشياء عندما تحجب عن الخالق، وخصوصا إذا تكاثر الإعجاب لذلك الشخص. لاحظ مثلا أن المغني جستن بيبر يتابعه الآن حوالي سبعين مليون متابع في تويتر، ولاحظ ردود الأفعال لمن يخصه ذلك المغني بتغريدة أو رد.. قد يفسر البعض ذلك بأنه مجرد إعجاب، لكن لو دققنا النظر فإننا لن نجد هذه الظاهرة عند من له حظ جيد من التدين.

والقرآن الكريم يشير صراحة إلى هذا المفهوم في قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

التعلق بنظرية التطور

يأتي تركيز الملحدين على صحة نظرية التطور واعتبارها حقيقة لأنها هي التفسير الوحيد الذي يمكنه أن يسقط التفسير الخَلقي لوجود الأحياء، ولهذا لا يمكن للملحد أن يقبل بإسقاط نظرية التطور على الإطلاق. يقول دوكنز حرفيا في مقطع موثق له على اليوتيوب ما ترجمته: «إذا كان هدفك قتل الأديان مثلي فاستخدم نظرية التطور».

وعلى كثرة ما يُطرح لنقض التطور بين الأنواع من منظور علمي بحت، وما يضاف لهذا الطرح من نبرة تحدٍّ موجهة لأدعياء العلم الذين يعتبرونه حقيقة علمية، وعلى كثرة مطالبتهم بدليل علمي يثبت صحته بشروط الأدلة العلمية المعيارية المعروفة عند العلماء (دليل قابل للدحض، وقابل للرصد والملاحظة، وقابل للتجربة، وقابل للتكرار)، إلا أنك لن تجد إجابة!

كل ما ستجده من ردود هو اتهامك بأنك لا تفهم النظرية! وكأنك تتحدث عن نظرية باطنية غامضة تكتنفها الطلاسم والأسرار، ويجب أن يؤمن بها الجميع ولا يفهمها إلا القلة! وكأنهم حينما يفرون من غيبيات الأديان يُحكمون إيمانهم بالإلحاد بمثل هذه الغيبيات التي ينكرونها على أهل الإيمان!

قد تصادف شخصا تطوريا لا يعرف شيئا عن الدليل العلمي فيستدل على صحة التطور بأن النظرية تُدرّس في الجامعات العالمية وأن غالبية المجتمع العلمي تقول بها، هنا تعرف حجم المغالطة المنطقية التي تسمى مغالطة الاستدلال بالسلطة (appeal to authority)، وهو هنا الاستدلال برأي شخص لأنه من السلطة العلمية رغم أنه لا دليل لديه! كل ما لديه هو قناعة غير مثبتة، أو مشاعر رهبة من عودة الكنيسة والدين أو رهبة من محاكم التفتيش الداروينية التي حاربت الكثير من العلماء والكتاب المناوئين للنظرية وسعت في فصلهم من العمل الأكاديمي، ومن هؤلاء الباحث مارك آرميتاج والكاتب ريتشارد سترنبرج وعلماء مشهورون مثل جيري فودور وجيمس شابيرو وتوماس ناجل وديفيد برلنسكي وغيرهم كثير. ويمكن الرجوع حول محاكم التفتيش الداروينية لفلم وثائقي مترجم اسمه «المطرودون– expelled».

هناك أمثلة واضحة تثبت خطأ الاستدلال برأي المجتمع العلمي باعتباره دليلا علميا؛ ففي بداية القرن الثامن عشر كان المجتمع العلمي يعتقد أن هناك عنصرا موجودا في المواد القابلة للاشتعال هو الذي يؤدي إلى الاشتعال، وأسموه (الفولوجستون)، واستمر هذا الاعتقاد حتى أسقطه لافوازييه وأثبت خطأه. وكذلك كان هناك إجماع بين العلماء على أزلية الكون ثم أسقطه لوميتر وهابل وأثبتا خطأه، وأيضا ساد الإجماع بين العلماء في وقت مضى على التولد الذاتي (نشوء الكائنات الدقيقة ذاتيا) فأسقطه باستور وأثبت خطأه، فهل يجرؤ التطوري أن يأخذ بصحة تلك الإجماعات العلمية؟ بالطبع لا.. فإثبات الأمر بدليل علمي يعني بالضرورة أن صحة هذا الأمر غير قابلة أصلا للنقاش. ولذلك عندما يستدل التطوري بالإجماع العلمي فإن عليه أن يؤمن بالفولوجستون وأزلية الكون والتولد الذاتي، وإلا فلديه ازدواجية لا يقبلها المنهج العلمي.

وعندما ندعو إلى التمسك بالدليل العلمي المعياري بشروطه المعتبرة فقط، فهذا بالطبع لا يعني أن الإجماع العلمي لا قيمة له، فهو قرينة، لكنه ليس دليلا، مع أنه لا يوجد إجماع علمي أصلا على صحة التطور فآلاف العلماء يشككون فيه، وقوائم أسمائهم موجودة على الإنترنت.

أما من يقول من التطوريين إن التطور يحتاج إلى ملايين السنين ولذا لا يمكن ملاحظته أو رصده أو إثباته علميا فقد كفانا مئونة الجواب، فهو يقول إن التطور حقيقة علمية ولكنها حقيقة لا يمكن إثباتها! أي أنه بهذا يفترض وجود حقيقة علمية لا يمكن إثباتها، وهذا يسمى إيمانا دوغماتيا أعمى، والإيمان الأعمى هو السائد على التطوريين بكل وضوح، وعلامته الحماس الزائد المحموم للاعتقاد بأن التطور حقيقة علمية مع الفشل في إيجاد الدليل العلمي.

قد يعترض البعض على الربط بين الإلحاد ونظرية التطور، وهذا مستغرب ممن يعرف جيدا ما هو الإلحاد وما هو التطور! فلا يمكن أن يوجد ملحد لا يؤمن بالتطور، والإيمان بالتطور شرط أول لإنكار الخالق، لكن هذا لا يعني أن كل من يؤمن بالتطور فهو ملحد. فكل ملحد تطوري ولكن ليس كل تطوري ملحد، ونظرية التطور بالنسبة للإلحاد هي بلا شك كعب أخيل، ولهذا فإن سقوط النظرية علميا هو آخر مسمار في نعش الإلحاد بعد سقوط خرافة أزلية الكون وخرافة التولد الذاتي.

ويحسن أن أشير هنا إلى ملاحظة يمكن أن نلمسها بوضوح، وهي أن الاندفاع المحموم من بعض الإخوة المسلمين نحو تأييد النظرية غالبا ما يكون باعثه تراكمات من الشعور بالنقص الحضاري والهزيمة الثقافية، فتلاحظ أنهم يعبرون عن مشاعر الخجل من الثقافات الأخرى والخوف من أن نصبح أضحوكة العالم التطوري. وهذا مركب نقص حضاري متمكن في بعض النفوس، وتلك الشريحة يصعب إقناعها نظرا لسطوة العامل النفسي لديها. ولكن لحسن الحظ فإنك لن تجد هذا الشعور المنهزم عند من لديه تأسيس شرعي قوي من شباب المسلمين.

كنت أتمنى من المسلم الذي يشعر بهذا الخجل من العالم «المتحضر» أن يخجل قليلا من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإخوته الأنبياء عليهم الصلاة السلام جميعا؛ فلا يدافع عن نظرية ساقطة تقول إن هؤلاء الأنبياء ينحدرون من قردة عليا (great apes) أو يجمعهم بها سلف مشترك، في حين أن من أشد العقوبات التي أنزلها الله عند غضبه هي المسخ إلى قردة: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[الأعراف: ١٦٦].

ويجدر بالمسلم الذي يقبل نظرية التطور أن يتأمل هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. فإن أتى خلق آدم بعد

الكائنات فقد خلقه خلقا منفصلا من طين، وإن أتى قبلها فقد وجدت هذه الكائنات بعده. وباختصار فإنه لا يمكن الجمع بين النظرية وبين مسلمات الوحي. ولهذا فإنك تجد بعض من يرى صحة النظرية من المسلمين يُخرج الإنسان من النظرية نهائيا! ولا أعلم- مادام مهتما بالمنهج العلمي- كيف يقبل جزءا من النظرية ويرد جزءا آخر سوى أن هذا منهج تلفيقي وليس منهجا علميا.

التفسير العلمي للظواهر

من الملامح التي يمكن ملاحظاتها عند المتشككين والملحدين الجدد عدم القدرة على استيعاب كلا التفسيرين الشرعي والعلمي للظواهر الفيزيائية والفشل في الجمع بينهما. فإما أن يكون الارتباط نفسيا مع التفسير العلمي ومن ثم التشكيك بالدين والانسحاب منه، أو العكس.

عندما ينص القرآن مثلا على أن الله هو الذي ينزّل الغيث من السماء، ثم نطالع التفسير العلمي لآلية تكون الأمطار من الأبخرة المتصاعدة من البحار والمناطق الرطبة كالغابات، ثم انتقالها بواسطة الرياح إلى ارتفاعات باردة تتكثف معها وتسقط غيثا، فإننا قد نجد أنفسنا أمام موقفين خاطئين من البعض: إما الانسحاب من الدين على اعتبار أنه يناقض العلم، وهذا ما يقع فيه المتشككون، وإما الانسحاب من التفسير العلمي وإنكاره برمته على اعتبار أنه يناقض النص.

وكلا الموقفين يدلان على جهل وعدم إدراك للتوافق بين النص الشرعي والتفسير العلمي؛ فوجود التفسير العلمي لنشوء السحب ونزول الغيث بحسب قانون السببية لا ينفي أن الله هو الذي ينزل الغيث من السماء، وأن لفظة «السماء» هنا هي وصف للعلو والارتفاع. ثم من أين أتت هذه المسببات والقوانين والثوابت الفيزيائية كلها؟ ألم يخلقها الله سبحانه وتعالى ويجعلها سببا لحدوث هذه الظواهر الطبيعية؟ وقس على

ذلك كل الظواهر الأخرى من زلازل وبراكين وكوارث وكسوف وخسوف وغيرها.

وأما الجانب النفسي في الأمر فهو يتلخص في أن المتشكك كان يربط لا شعوريا بين الظواهر الطبيعية وبين عقيدته من خلال ما ورد في النصوص، فإذا عرف التفسير العلمي للظاهرة توهّم في ذهنه أن هذا التفسير يناقض ما ورد في النص ولم يدرك أن التفسير العلمي إنما هو مجرد تفصيل لوصف الظاهرة الوارد في النص الشرعي، فينفك لا شعوريا عن النص الشرعي وبالتالي عن العقيدة المرتبطة بذلك النص.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام قيّم في وصف نزول المطر من الأبخرة المتصاعدة وأنه لا يناقض ما ورد في النص القرآني. قال رحمه الله :

قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١]، فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع، والينابيع جمع ينبوع، وهو منبع الماء كالعين والبئر، فدل القرآن على أن ماء السماء تتبع منه الأرض، والاعتبار يدل على ذلك؛ فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع وإذا قل قلت.

وماء السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو وما يتصاعد من الأبخرة، وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء، ولا هذا أيضا معلوم بالاعتبار فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال ويكون فيها أبخرة يخلق منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل كما إذا أخذ إناء فوضع فيه ثلج فإنه يبقى ما أحاط به ماء، وهو هواء استحال ماء، وليس ذلك من ماء السماء. فعلم أنه ممكن أن يكون في

الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء وإن كان غالبها من ماء السماء والله أعلم.

(مجموع الفتاوى: ١٦/ ١٦)

نقص الإيمان والشعور بالظلم

من أكثر الأسباب المؤدية إلى الإلحاد في هذا العصر هو اجتماع نقص الإيمان مع الشعور الشديد بالظلم، ومما يهيء الأرضية الخصبة للإلحاد في نفوس الشباب الذين يجتمع لديهم هذان السببان ما يصبه الملاحدة من شبهات في وسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصا ما يسمى بمشكلة الشر، وهي ليست بمشكلة في الحقيقة، ولا تنطوي على أي نوع من الظلم إذا استحضرنا التصور الإسلامي الصحيح حول البعد الأخروي وتحقق العدل المطلق لجميع المخلوقات. فإذا تحقق العدل فقد انتفى الظلم.

والشعور بالظلم يدفع المؤمن الذي لديه تأسيس شرعي سليم وبعد عن الهوى إلى اللجوء إلى الله، فهو يعلم أن ما يجري له إنما هو محض ابتلاء إن صبر عليه واحتسب فسيعوضه الله عنه لا محالة بأضعاف كثيرة من نعيم أبدي مقيم، وفي الجانب الآخر فإن هذا الشعور بالظلم قد يدفع قليل الإيمان الذي يسخط ويجزع ويتبع هواه إلى الكفر والإلحاد والعياذ بالله.

وفي الموضوع التالي سنتحدث عن هذه النزعة الإلحادية الناتجة من معاناة الحياة، وخصوصا فقد الأب، من خلال ما يسمى بمتلازمة الأبوة الناقصة حسب التفسير النفسي للإلحاد عند البروفيسور بول فيتز، وكيف أنه مال إلى التفسير النصراني نظرا في اقتصاره على عينات تعيش في محيط يدين بالنصرانية.

نظرية بول فيتز (متلازمة الأبوة الناقصة)

حصل البروفيسور بول فيتز (Paul Vitz)، المولود عام ١٩٣٥م في ولاية أوهايو، على درجة الدكتوراه في الدافعية والسيكولوجيا التجريبية من جامعة ستانفورد، وظل ملحدا إلى أن تحول إلى النصرانية، وعمل أستاذا في جامعة نيويورك ستي لتسعة وثلاثين عاما، وفي عام ١٩٩٩م نشر كتابه الذي أثار ضجة كبرى حينذاك، وهو كتاب «إيمان فاقدي الأب» (Faith of the Fatherless)، وقد ضمنه أطروحته التي تقول إن الأبوة الناقصة (سواء كان الأب مفقودا أو مضطهِدا أو غير جدير بالاحترام) هي من أسباب النزوع إلى الإلحاد، وكان ذلك من خلال دراسة حياة أشهر الملحدين الغربيين، حيث اتضح أن هناك علاقة بين إلحادهم وبين فقدهم الحسي أو المعنوي للأب أو لمكانة الأب.

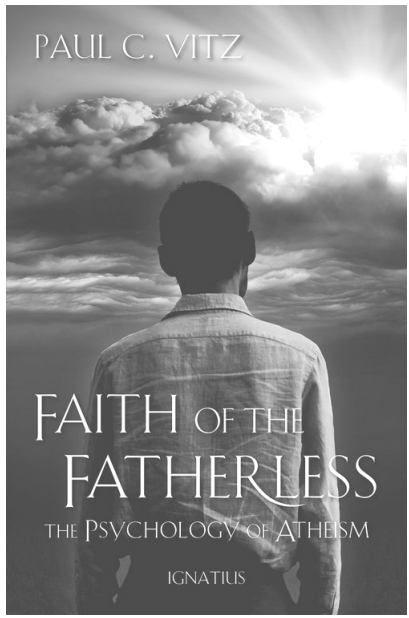

نظرا لأهمية هذه الدراسة ودلالاتها، ووجود بعض الملاحظات عليها، فسوف أتطرق إليها هنا بشيء من التوسع والبسط.

من خلال دراسة الحالات المتوفرة، خلص البروفيسور فيتز إلى أن الأب الناقص يمكن أن يصنف إلى ثلاثة أصناف رئيسة:

- الصنف الأول هو الأب الذي يرفض أسرته أو يهجرها.
- الصنف الثاني هو الأب الطاغية الذي يسيء معاملة

أسرته ويمارس معها سلوكا عدائيا.

- الصنف الثالث هو الأب الذي يموت ويترك أسرته؛ فالأب الميت هو أب ناقص في نظر أطفاله، والطفل الصغير لا يدرك حقيقة الموت كحادثة لا يمكن السيطرة عليها، وإنما يعتقد أن موت الأب هو نوع من الهجر والترك وربما الرفض، وعلى أية حال فالأب الميت هو أب غير موجود.

وقد تم تطبيق هذه الفرضية على مرحلة الطفولة لعدد من الملاحدة المشهورين سواء كانوا فلاسفة أو مفكرين سياسيين أو مشاهير. والهدف من التركيز على الشخصيات الشهيرة هو أن يكون التطبيق على ملحدين جادين لهم باع في الإلحاد، ويمثل الإلحاد جزءا مهما من حياتهم، وليس على ملحدين سطحيين لا يمس الإلحاد نفسياتهم ولا يقبع في أعماقهم.

وفي المقابل تم تطبيق معايير الدراسة على حالات تعيش نفس السياق الزمني والحضاري مع أولئك، ولديهم نفس الشهرة والمكانة ولكنهم من المؤمنين بوجود الخالق، ومن المدافعين عن ذلك.

أي أن تطبيق الفرضية تم على مجموعتين: مجموعة التجربة (experimental group) وهي من الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، والمجموعة الضابطة (control group) وهي من المؤمنين بوجود الخالق.

وكان سؤال الدراسة هو: هل هناك شواهد من مرحلة الطفولة يمكن التمييز عن طريقها بين الملحدين والمؤمنين؟

تشمل الدراسة أسماء ملحدين معروفين في عالم الفكر الغربي، منهم فريدريك نيتشه، الفيلسوف الألماني صاحب مقولة موت الإله، ومنهم أيضا سيجموند فرويد، وجان بول سارتر، ولودفيغ فيورباخ، وآرثر شوبنهاور، وفولتير، وتوماس هوبز، وديفيد هيوم.

وأما من الطرف الآخر (المؤمنين بوجود الخالق) فلدينا مثلا باسكال، وإدموند بيرك، ووليام ولبرفورس، وجيلبرت تشسترتون، وموزس مندلسون.

مجموعة التجربة

لنستعرض حياة بعض مشاهير الملحدين من تلك العينات، ونسلط الضوء على ما يهمنا في حياتهم، وهو وجود الأب والنزعة الإلحادية.

لودفيغ فيورباخ (1804-1872) (Ludwig Feuerbachم): فيلسوف ألماني، كتب أشهر أعماله في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وهو أول فيلسوف غربي يقول إن الإيمان بالرب إنما هو انعكاس لحاجاتنا النفسية. فهو ملحد يرى أن الرب مجرد فكرة تقدمها الحاجة، فقد قال بذلك قبل فرويد بوقت طويل.

كان أبوه البروفيسور فيورباخ رجلا قانونيا معروفا في مجتمعه، يعيش في مدينة ألمانية صغيرة. وحين كان الابن في الثانية عشرة من عمره تقريبا، حوالي العام ١٨١٠م، هجر الأب أسرته وعاش مع زوجة أحد أصدقائه في مدينة أخرى. ولا نعلم عن صديقه وكيف سمح له بالعيش مع زوجته، لكن ما يهمنا هو ما حصل منه تجاه أسرته، فقد عاش مع تلك المرأة لخمس أو ست سنوات، وأنجبت منه ابنا أسماه باسمه (فيورباخ)، ثم لما ماتت المرأة عاد الأب مع ابنه الجديد لأسرته بلا مبالاة، وكان لودفيغ- الذي نتحدث عنه- حين عودة أبيه في الثامنة عشرة تقريبا، أي في سن بداية الدراسة الجامعية. ومن الواضح أن تسامح الزوجة الأصلية مع زوجها السيء كان بلا حدود.

بالإضافة إلى سلوك الهجر، فقد كان الأب ذا مزاج بالغ العصبية والانفعال، وتضررت علاقاته بزملائه في الجامعة كثيرا بسبب انفعاله وحدته في النقاش.

هنا نجد مثالا تقليديا واضحا للأب الناقص؛ يهجر أسرته سعيا لإشباع غرائزه ثم يعود بلا أدنى شعور بالمسئولية والأبوة تجاه ابنه وأسرته، وتغلب عليه في حياته الشخصية وتعامله صفة البركان القابل للانفجار في أي وقت.

آرثر شوبنهاور (1788-1860) (Arthur Schopenhauerم): كان شوبنهاور يسمى أحيانا بالمتشائم العظيم. كان أبوه تاجرا معروفا في مجتمعه، وأمه شخصية اجتماعية مقبولة، لكنها لم تتقبل ذلك الابن آرثر وتذكر أمامه دائما أنه أفسد عليها حياتها التي تفضلها، وهي حياة السفر والترحال حول أوروبا، ولذلك فقد كانت علاقته بأمه سيئة على الدوام. ولم يمنعها ذلك أصلا من كثرة السفر والتنقل، فقد كان في أغلب الأوقات يعيش مع مربيته التي تعتني به بعيدا عن أمه وأبيه. ومع أنه أمضى سنوات قليلة من العلاقة الجيدة مع والده عندما كان بين الثامنة والعاشرة حيث استقرت الأسرة لعدة سنوات، لكن علاقته بأمه بقيت سيئة. ثم استمرت الأسرة في الابتعاد عنه لسنوات، ولما عاد أبوه إليه في سن السادسة عشرة تقريبا شارك الابن مع أبيه في أعماله التجارية لوقت قصير، ثم انتحر الأب بالقفز من الدور الثالث لإحدى البنايات ومات في الحال.

كان آرثر يرى أن والدته هي السبب في دفع أبيه للانتحار، وقد ذكر آرثر في مذكراته أنه أصبح بعد ذلك بقليل يعاني من اكتئاب عميق، وأنه بات ملحدا لا يؤمن بوجود الرب.

ويذكر المؤلف بول فيتز حالتين معاصرتين لرجل وامرأة شبيهتان بحالة شوبنهاور، وفي كلتا الحالتين كان تحولهما إلى الإلحاد خلال عامين من انتحار الأب، وكان كل منهما في سن السادسة عشرة، وفي الحالتين كان الأب مرتبطا بالتدين، حيث كان أبو الرجل قسيسا في كنيسة وأبو المرأة يواظب على أخذها إلى الكنيسة. ومن الواضح أن انتحار الأب في

الحالتين بدا لهذا الولد وهذه الفتاة نوعا من الرفض والهجر، وهذا ما لا يدركه من يلجأ للانتحار، فالمنتحر يعاني من الاكتئاب ويظن أن من حوله يدركون ذلك، لكنه لا يدرك أنهم قد يأخذون الأمر باعتباره نوعا من الرفض والهجر، وأنهم سيحفظون ذكرى مؤلمة لهذا الحدث، ورفضا مقابلا لكل ما يمثله ذلك الشخص.

سيجموند فرويد (Sigmund Freud) (1856-1939م): لم تكن المشكلة مع يعقوب والد سيجموند فرويد متعلقة بالموت، وإنما تركزت في أن الابن فرويد كان يرى أن أباه غير جدير بالاحترام. ففي حين كان الابن جريئا في انتقاد نزعة اللاسامية في عصره، كان أبوه ضعيفا لا يجرؤ حتى على الاعتراض. ومعلوم أهمية مثل هذا الرفض لدى الأقلية اليهودية حينذاك، وأسرة فرويد جزء من تلك الأقلية، والتهاون في رفض اللاسامية عند تلك الأقلية هي بالتأكيد قبول بالإهانة.

ومن الأحداث التي ذكرها فرويد عن أبيه أن الأخير تعرض من بعض الشباب اللاساميين إلى الضرب، فلما سأله ابنه فرويد، الذي كان حينها في الثانية عشرة، عن ردة فعله أخبره أنه لم يفعل شيئا وإنما مشى في طريقه ولم يرد عليهم. هذه الحادثة ذكرها فرويد في سيرته، وقد أجمع النقاد على أنها من أهم الأسباب التي جعلته لا يشعر بالاحترام تجاه أبيه، خصوصا لما يمثله مبدأ مقاومة اللاسامية لديهم حينذاك.

لكن هناك أسبابا أخرى أيضا لعدم شعور فرويد بالاحترام تجاه أبيه، فنجده في رسالتين من رسائله يخبر زميلا له في أواخر القرن التاسع عشر بأن أباه منحرف وعديم الأخلاق، وأن آثار ذلك الانحراف ظهرت واضحة على حياة أسرته وخصوصا أخواته. ورغم أننا لا نعلم ما نوع الانحراف الذي تحدث عنه برسالتيه، لكننا ندرك الآن أن هناك سببا كان يدفعه لعدم احترام والده. ويجب أن لا ننسى أن لوالد فرويد ارتباطا

بالديانة اليهودية، فقد كان دارسا للتلمود والكتب الدينية اليهودية. ولكن في الوقت نفسه لم تكن له مكانة اجتماعية محترمة، ولم يكن يعمل أو يمارس التجارة. وكان فرويد أحيانا ينتقد أباه بمرارة لعدم سعيه في توفير ما يكفيهم من المال.

فولتير (1694-1778) (Voltaireم): لم يكن فولتير ملحدا صرفا، فقد كان يبدو أحيانا وكأنه مؤمن لكن إيمانه ظل تجريديا، فليس من الحكمة إعلان الإلحاد في أوروبا في ذلك العصر، ومع ذلك فقد سعى في مواجهات كثيرة مع الكنيسة والديانة النصرانية.

لقد كره فولتير أباه كرها شديدا، ومن نتائج هذا الكره الشديد اختياره للاسم (فولتير) وتخلصه من اسم أبيه الذي كان يحمله خلال طفولته وشبابه. وقد ورد ذكر أبيه في مراسلاته مرات عدة كلها في سياق نقدي سلبي، رغم أننا لا نعلم بالضبط ما هو الباعث وراء تلك النظرة السلبية.

ومن المثير أن نعرف أن أول مسرحية تم إنتاجها لفولتير، وكان حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره، كان اسمها أوديب، وهذا الاسم له إشارات سلبية مرتبطة بالأب منذ مسرحية الإغريقي سوفوكليس، وفي مسرحية فولتير تقوم شخصية نحيلة بقتل الآلهة وقتل الملك، وهما رمز الأبوة في فرنسا النصرانية في ذلك الوقت.

توماس هوبز (1588-1679) (Thomas Hobbesم): اعتنق هوبز المذهب المادي في طرحه، لكنه كان ملحدا، ففي أوروبا القرن السابع عشر لم يكن أحد ليأمن على حياته إن أعلن إلحاده على الملأ. كان يرى أن الحياة ليست إلا مادة، وكان يواجه المؤسسة الكنسية دائما.

في سن الثالثة كان أبوه قسيسا أنجليكانيا فاشلا، ففي كنيسة تلك القرية التي نشأ فيها كان يغلبه النوم أثناء الصلوات الكنسية، ولم يكن مرغوبا به في تلك الكنيسة.

وفي أحد الأيام، عندما كان هوبز صغيرا، وقعت مشاجرة حادة أمام الملأ بين أبيه وبين قسيس آخر في الكنيسة، وقد أمعن الأب في إيذاء ذلك القسيس ثم هرب خوفا على نفسه، تاركا أسرته التي لم تقع له على أثر فيما بعد. أي أنه اختفى نهائيا من حياتهم ومن حياة الابن هوبز نفسه، فصار خاله هو الذي يقوم برعايته ويدفع عنه رسوم الدراسة، رغم أن علاقته به لم تكن ودودة تماما. ومن هنا يسهل تتبع جذور موقف هوبز من الدين ومن الكنيسة بشكل عام.

فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) (1844-1900م): مات والد نيتشه عندما كان في الرابعة والنصف من العمر بعد معاناة مع المرض، ولم يجد بديلا يقوم بدور الأب وإنما قامت بتربيته نساء الأسرة حتى بلغ مرحلة الرجولة، ومن هنا لم يكن يشعر بالأمان تجاه رجولته، وتولدت لديه فكرة الأب المرتبطة بالموت.

كان متعلقا جدا بأبيه في صغره، وكان أبوه قسيسا يأخذه معه إلى الكنيسة منذ أن كان عمره سنتين، وكان أبوه يحادثه أحيانا وهو يؤدي موعظته في الكنيسة فيثير في نفسه الاعتزاز. وهكذا نجد أنفسنا أمام طفل متعلق بأبيه ثم يرحل أبوه ميتا ويتركه! لقد تحدث نيتشه بمرارة عن ذلك اليوم في مذكراته.

كان نيتشه يقول إن إلحاده لم يكن ناتجا عن تفكير وتأمل ولم يكن موقفا عقليا، وإنما عرف أنه ملحد- كما يقول- بمشاعره! فهو عرف أنه ملحد ليس بناء على التفكير وإنما بناء على المشاعر والهوى.

لقد تألم نيتشه من فقد أبيه طيلة حياته، ولا شك أنه عندما كان يقول عبارته الشهيرة عن موت الإله فكأنه يقول إن أباه قد مات، وإنه هجره وتخلى عنه.

مادلين أوهير (Madeline Murray O'Hare م1919-1995): مادلين أوهير هي رئيسة منظمة الملحدين الأمريكية، وقد سعت بكل جهد من أجل إلغاء المواد الدينية في المدارس الأمريكية. ورغم أننا لا نعرف إلا القليل عن تفاصيل حياتها الشخصية إلا أننا نجد أحد أبنائها يذكر أن من اللحظات الحاسمة التي لا زال يتذكرها وهو صغير تلك اللحظة التي هددت أمه مادلين أباها بسكين كبيرة وهي تصيح عليه: سأقتلك وأرقص على قبرك.

بالطبع هي لم تقتله، ولكن من الواضح جدا أن مادلين تكره أباها كرها شديدا، ورغم أننا لا نعرف السبب إلا أن الإبنة عادة لا تفكر بقتل أبيها إلا لسبب قوي ومؤلم.

من هذه النماذج التي أوردها البروفيسور بول فيتز في كتابه نجد أن هناك علاقة واضحة بين مشكلة الأب الناقص (السيء) وبين النزعة الإلحادية لديهم.

المجموعة الضابطة

وينقل لنا فيتز نماذج أخرى هي المجموعة الضابطة (control group)، حيث يثبت عن طريقها العكس، وهو أن الأبوة الكاملة السليمة سبب من أسباب الحفاظ على فطرة الإيمان لدى الابن. وهذه بعض النماذج التي ذكرها:

باسكال (Blaise Pascal م1623-1662): يعتبر باسكال من المتدينين، عاش في القرن السابع عشر في فرنسا، وكان متخصصا بالرياضيات والمنطق، وكان والده قاضيا، اهتم بتعليمه هو وأخته منذ صغرهما في المنزل، وأمضى وقتا وجهدا كبيرين في تعليمهما، فنشأت علاقة قوية بين باسكال وأبيه نراها واضحة من خلال الإشارات الإيجابية إليه في مذكراته.

وكان يحبه ويحترمه، وينظر إليه بعين الإعجاب والفخر. وقد نبغ باسكال في الرياضيات، وكان من المشهورين بالتدين.

إدموند بيرك (1729-1797م Edmund Burke): مفكر سياسي إيرلندي، ولد في دبلن، يعتبر من رواد الفكر المحافظ الحديث. انتقل إلى إنجلترا وخدم في مجلس العموم عضوا يمينيا. من أشهر أعماله «تأمّلات حول الثورة في فرنسا» في التحذير من تبعات الثورة الفرنسية التي حدثت في عهده، إلا أنه كان من المؤيدين للثورة الأمريكية. والغالب على علاقة بيرك بأبيه هو أنها علاقة إيجابية، لكن خاله كان أيضا بمثابة الأب البديل له، فكان يرعاه ويهتم به كثيرا، وكان بيرك يصفه بأنه أكثر الأشخاص الذين قابلهم في حياته إثارة للإعجاب والاحترام.

وليام ولبرفورس (1759-1833م William Wilberforce): سياسي ومتبرع إنجليزي وأحد قادة حركة إلغاء الرق. بدأ حياته السياسية في ١٧٨٠م وأصبح في نهاية المطاف عضوا مستقلا في البرلمان ليوركشاير. في عام ١٧٨٥م مر بتجربة تحول ديني إلى المسيحية الإنجيلية مما أدى إلى تغييرات كبيرة في حياته. مات أبوه عندما كان في التاسعة من عمره، وقد كانت علاقته مع أبيه جيدة، وكان من المفروض أن تؤثر وفاة الأب عليه سلبيا لكن الأم أرسلته ليعيش مع خاله وخالته الذين كانا متدينين جدا. فكان البيت بيتا متدينا، وكان ولبرفورس يعتبر هذين الشخصين أباه وأمه كما كان يقول، وعندما اضطر للمغادرة بعد سنوات كان يعتبر نفسه قد غادر والديه.

جيلبرت تشيسترتون (1874-1936م Gilbert Chesterton): كاتب وشاعر وصحفي انجليزي متدين. كانت علاقته بأبيه جيدة جدا، ومن أسباب ذلك بقاء أبيه دائما بجانبه هو وإخوته في البيت، وقيامه بتعليمهم

بنفسه واللعب معهم، فقد كان أبوه يعمل في العقار لكنه لا يحب هذا النوع من العمل، فيظل كثيرا في البيت يمضي الأوقات الطويلة الممتعة مع أطفاله. وكان تشيسترتون يتحدث دائما عن الحياة السعيدة التي عاشها في طفولته.

موزس (موسى) مندلسون (1729-1786) (Moses Mendelssohnم): كاتب وفيلسوف يهودي ألماني متدين. كان في عصره من ألمع الأسماء على ساحة الفكر، وكانت أسرته تعمل بتجارة الأقمشة. كانت علاقته بأبيه متينة، وكذلك كانت علاقته ببعض الحاخامات اليهود قوية، وكان يشعر تجاههم بمشاعر الأبوة.

استثناءات النظرية

يطرح البروفيسور فيتز بعض الاستثناءات لنظريته، ويعتبرها أمرا لا يقدح في صحة النظرية، لأن مثل هذه النزعات النفسية يتعاورها الكثير من المؤثرات والأفكار والدوافع، ولهذا فلا بد من الحالات الاستثنائية، ومن أهم هذه الحالات كارل ماركس.

كارل ماركس (1818-1883) (Karl Marxم): هو فيلسوف ألماني ملحد، لعبت أفكاره دورا في الاجتماع والاقتصاد والحركات الاشتراكية. كان أبوه رجل أعمال برجوازيا ناجحا، وهو يهودي ينحدر من سلالة حاخامات مشهورة في ألمانيا، لكنه اعتنق النصرانية لأنها كانت أكثر مصلحة له من بقائه على اليهودية. ولما دخل ماركس الجامعة دعمه أبوه ماليا وصرف عليه، وكذلك دعمه بعد تخرجه من الجامعة، فلا يظهر لنا حصول أي موقف أو ظرف غير جيد مع أبيه يمكن أن يكون دافعا لتحوله إلى الإلحاد كما تفترض هذه النظرية.

قد يكون هناك شيء من عدم الاحترام لوالده لانتمائه إلى الطبقة البورجوازية التي كان يحاربها كثيرا في الماركسية، وهذا الأمر محتمل، لكن لم تظهر منه أية علامات عن وجود مواقف سلبية تجاه والده.

وخلاصة القول أنه لا يمكن الجزم بأن غياب الأب أو نقصه من أية ناحية هو سبب حتمي يؤدي إلى الإلحاد، ولكنه- حسب فيتز- دافع يدفع إلى ذلك، وكما هو معروف فإن عالم الأفكار عالم غير مادي، فلا يقاس بمعايير وقوانين العالم المادي أو العلوم الرياضية، التي يغلب عليها الضبط والدقة والبناء المنطقي، فعالم الأفكار تتجاذبه المؤثرات والمشاعر والعواطف والمبادئ من كل طرف.

لفظة «الأب» في الديانة النصرانية

ليس هناك من شك أن عقيدة التثليث في الديانة النصرانية هي عقيدة ملفقة تناقض نفسها، فحينما ينقل إلينا (الكتاب المقدس) أن «الذين يشهدون في السماء ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس» فإنه يقول بعدها مباشرة «وهؤلاء الثلاثة هم واحد»! (١ يوحنا ٥ : ٧)

وقد أبطل القرآن عقيدة التثليث، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة ٧٣].

لكن ما يهمنا هنا هو الأقنوم الأول من هذه الأقانيم الثلاثة وهو أقنوم الآب، وما المقصود به في الديانة النصرانية المحرفة، وما هي صورته الذهنية في عقول النصارى الذين تربوا في بيئة نصرانية على اختلاف الكنائس بما فيهم مؤلف الكتاب بول فيتز.

المقصود بالآب في الديانة النصرانية هو الرب، وهم يعتقدون أنه الأب ليسوع المسيح- تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- وفي نفس الوقت يعتبرونه الأب الراعي لكل البشر. حيث وردت بعض النصوص في كتاب النصارى للمعنى الأول ووردت نصوص أخرى للمعنى الثاني.

أما اللفظة العربية «الآب»- وربما كانت محرفة عن اللفظة الآرامية «آبا»- فهي باللغة العربية تختلف من حيث النطق عن لفظة «الأب»

اختلافا يسيرا، لكنها في أكثر اللغات الأخرى هي نفس اللفظة بالضبط، فنرى في الإنجليزية مثلا أن لفظة (Father) التي تطلق على الأقنوم هي نفسها اللفظة (father) التي تطلق على الأب (الوالد).

ولهذا فاللفظة عندهم هي واحدة لكلا الدلالتين، الأقنوم والوالد البشري، وبالتالي فإنه يظل هناك الكثير من التداخل والترابط في التصور الذهني بين الأب الآدمي والأب السماوي في العقلية النصرانية، تعالى الله عن ذلك.

النظرية في سياق نصراني

إن مآلات هذا التشابه في اللفظة والتشابه في المعنى بين الأقنوم الإلهي والأب البشري هي بيت القصيد في نظرية بول فيتز التي نحن بصددها. فالأب البشري كما يراه النصارى- ويفسره بناء على ذلك فيتز- هو رمز للخالق، لأنهما يحملان نفس الاسم عندهم ويشتركان بصفات متشابهة كالرعاية والحب والحنان، ولهذا فإن غياب الأب البشري أو موته أو تشوهه، ينعكس لا شعوريا على فكرة وجود الخالق.

من هذا الباب فإن النظرية يمكن تطبيقها بشكل جيد على عقلية تعيش في سياق نصراني، والطريف أن بول فيتز هو الآخر يحمل عقلية من هذا النوع. فهي جيدة في تفسير الحالات التي عرضها فيتز للملاحدة الذين نشأوا في بيئة نصرانية تؤمن بهذا التصور.

وعلى ذلك فإن الرابط الذهني بين الأب البشري والأب الإلهي في التصور النصراني يمثل عاملا حاسما في نظرية بول فيتز لتفسير أثر فقد الأب أو تشوه صورته في النزوع إلى الإلحاد لدى العينات التي اختارها لاختبار النظرية.

جوانب لا علاقة لها بمفهوم «الأب النصراني»

هناك جانب آخر مهم جدا لا يمكن إغفاله لمشكلة فقد الأب أو المعاناة المرتبطة به، قد تؤدي إلى ميل الشخص إلى الإلحاد تحت ظروف معينة. وهذا الجانب هو ما يترتب على فقد الأب من انعدام الحنان والرعاية والدعم، وكذلك الدخول في معاناة لا تطاق قسوتها في مواجهة ظروف الحياة، وبالتالي يترسب في قرارة العقل الباطن لدى الطفل في هذه المرحلة شعور بتخلي الخالق عنه- إذا لم يكن لديه من يوضح له الأمر- وسنرى في الموضوع التالي بإذن الله أن هذه المرحلة المبكرة من العمر هي مرحلة تقبل الإيحاءات وحفظها دون تمحيص لتبقى مؤثرة في سلوكنا وأفكارنا طيلة الحياة.

ردة الفعل لطفل أو مراهق يعاني من فقد أكبر الداعمين له، وهو أحد الوالدين أو كلاهما، سواء كان الفقد حقيقيا أو معنويا، ستولد لديه استجابة عارمة، وخصوصا لمن يتعرض للشبهات التي يبثها بعض النصارى والملحدين كشبهة وجود الشر، فتثور في ذهنه الشكوك حول عدل الخالق، وبالتالي إما أن يعتقد بوجود خالق ظالم- تعالى الله عن الظلم- وبالتالي تجد المسكين يعاند ويكابر مع اعتقاده بوجود الخالق، وإما أنه يستبعد فكرة وجود الخالق نهائيا لأنه لا يرى منطقا لوجود خالق ظالم. وكلا الموقفين يقومان على استدلالات خاطئة.

وقد لاحظت من خلال حساب «هداية الملحدين» (@atheistsguide) في تويتر أن بعض المتشككين والملحدين- شبابا وفتيات- قد تعرضوا لظلم أو سوء معاملة في الصغر، وربما تعرض بعضهم للتحرش أو الاغتصاب في مراحل عمرية مبكرة، وهذا لا يستلزم بالطبع أن كل من تعرض لمثل هذه المواقف فإن لديه ميلا للإلحاد؛ إذ أن المشاعر النفسية وما يتبعها من أفكار إنما تتجاذبها

عوامل معقدة ومتداخلة ومتعارضة، والميل إلى جانب معين رهين بقوة هذا الجانب وضعف الجانب المضاد.

ولعل بعض الحالات التي قدمها بول فيتز في كتابه يمكن أن تعتبر دليلا على أن مفهوم الأب الإلهي ليس هو التفسير الوحيد للنزوع إلى الإلحاد كنتيجة لفقد الأب في المجتمع النصراني، وإنما ردة الفعل للمعاناة من فقده كداعم وسند في مواجهة مصاعب الحياة يمكن اعتباره تفسيرا آخر مقبولا، ومثال ذلك حالة وليام ولبرفورس الذي فقد أباه في طفولته ولكنه عاش مع خاله وخالته، ففقدان الأب يفترض أن يفقد معه صورة الأب الإلهي الذي تعلمه في الكنيسة حسب قول فيتز، ولكن وجوده لاحقا مع خاله وخالته الذين كانا يدللانه خلصته من المعاناة المتوقعة، وبالتالي لم يتخل عن عقيدته وتدينه.

وأما إذا خرجنا من المجتمع النصراني فإن فكرة الأب الإلهي غير موجودة أصلا، ومقتضى ذلك هو أن حصول الإلحاد بسبب فقد الأب أو المعاناة من طرفه لا يمكن تفسيره على أنه ناتج عن مفهوم الأب الإلهي نفسها، وإنما هو نتيجة ما ذكرناه من فقدان الدعم والثقة، ومن الحالات التي تثبت ذلك في بحث فيتز الحالات التي لا علاقة لها بالعقيدة النصرانية كحالة اليهودي سيجموند فرويد.

خلاصة الملاحظات على تفسير فيتز

وخلاصة الفائدة التي نخرج بها من نظرية بول فيتز عند النظر بعناية في الأمثلة التي أوردها هي أن كثرة حصولها في العالم النصراني دون غيره يعود إلى عاملين نفسيين يتوفران في الثقافة والنفسية النصرانية هما فقد نموذج الأب السماوي والفشل في تجاوز الابتلاء المتمثل في فقدان الداعم في مواجهة الحياة.

وفي الحقيقة فإنه يبقى العامل الثاني فقط هو السبب الفاعل لدى الحالات ذات القابلية للإلحاد في المجتمعات غير النصرانية. وسأورد تاليا حالتين إلحاديتين من العالم العربي- على قلة الحالات المعروفة فيه- لا علاقة لهما مباشرة بعقيدة الأب الإلهي، وهما عبد الله القصيمي وإسماعيل أدهم.

وعلى ذلك فالنتيجة الحاسمة من دراسة بول فيتز هي أن الإلحاد حالة نفسية في الغالب، وهذه الحقيقة لا يدركها الملاحدة بسهولة، فهم لا يستطيعون غالبا الخروج من حالتهم النفسية- التي يسميها القرآن «الهوى»- ولا يدركون أنهم بعيدون عن العقل والمنطق إلا إذا استطاعوا الخروج من المشاعر والركون إلى العقل، وهذا أيضا ما دعى إليه القرآن مرارا وفي آيات كثيرة حين حظ على الابتعاد عن الهوى وامتدح الذين «يعقلون» والذين «يفقهون» و«أولي الألباب».

ويمكن ببساطة- كما ذكرنا- ملاحظة السلوك التعويضي لدى صغار الملاحدة في تويتر حين يسمون أنفسهم بأسماء عقلانية، فيعتقد أحدهم أنه صار بهذا عقلانيا، لكن عند مناقشته بالحجة فإنه يسقط بسهولة، سواء عند مواجهته بالدليل العقلي على وجود الخالق أو عند مطالبته بالدليل على دعواه بعدم وجود الخالق.

نبذة عن مسيرته الفكرية

عبد الله بن علي الصعيدي القصيمي هو ملحد مشهور، ولد في خب الحلوة غرب مدينة بريدة في القصيم عام ١٩٠٧م، ومات بعد صراع مع المرض في إحدى مستشفيات عين شمس بالقاهرة في بداية عام ١٩٩٦م، ودفن في مقابر باب الوزير بمصر.

تنقل في طلب العلم حتى انتهى به المطاف إلى جامعة الأزهر، حيث درس فيها أربع سنوات، وكان الأزهر حينذاك يسعى لمحاربة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ومن ذلك ما كتبه الأزهري يوسف الدجوي مدافعا عن زيارة الأولياء والتوسل بالقبور وطلب الشفاعة منهم، ونافيا صفة الشرك عن تلك الممارسات، فرد عليه القصيمي مدافعا عن دعوة التوحيد بكتابه «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»، عرى فيه كل دعاوى الدجوي. فاجتمع الأزهريون وأصدروا قرارا بفصله من الأزهر.

ولما ألف الكاتب الشيعي السوري محسن العاملي كتابه «كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب»، رد عليه القصيمي ردا ساحقا ماحقا بكتابه الكبير «الصراع بين الإسلام والوثنية»، وهو كتاب لقي قبولا عظيما عند أهل العلم في حينه، حتى أثنى عليه إمام الحرم المكي، وبالغ البعض بقولهم للملك عبد العزيز رحمه الله «لقد دفع القصيمي مهر الجنة بكتابه هذا». والكتاب ضخم، بلغت صفحاته ألفين وخمسمائة صفحة، من جزئين، حيث كتب في نهاية الجزء الثاني «تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث إن شاء الله... عبدالله القصيمي- القاهرة»، لكنه ألحد ولم يكمل الجزء الثالث!

دك القصيمي في كتابه صروح أهل البدع دكا، فصار يقدَّم في المحافل ويصدَّر في المجالس زمنا، ثم ذهبت تلك الهالة التي أثارها الكتاب حول مؤلفه، وتضاءل الاهتمام به، فأصيب بنكسة كتب على إثرها كتابه «كيف ذل المسلمون؟»، وبعد مدة كتب كتابه المخزي «هذه هي الأغلال»، خلط فيه بين الشريعة والعادات والتقاليد والخرافات والعقائد والنصوص الموضوعة والضعيفة، وخرج فيه من الإسلام خروجا تاما، وسخر واستهزأ فيه بالدين، وجمع الشبهات التي كان المستشرقون يثيرونها حول الإسلام. وقد ألف الشيخ إبراهيم السويح كتابا رد فيه على الأغلال هو «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال»، ورد عليه أخرون أيضا.

حصل نقاش بينه وبين محمد متولي الشعراوي ذات مرة، وبالغ بالإسفاف والاستهزاء والسخرية بالإسلام والغيبيات، فاضطر الشعراوي لترك المجلس امتثالا للآية الكريمة التي تنهى عن القعود مع المستهزئين بآيات الله.

وقد عبر سيد قطب- رحمه الله- عن اشمئزازه من كلام القصيمي عندما قابله، ومن محتوى كتابه الأغلال، واتهمه بالنفاق والخبث.

وقابله الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري لما زار مصر، وكشف كثيرا من جوانب شخصيته في كتابه «ليلة في جاردن ستي»، ومما قال عنه: «وإن القصيمي ليبدي عداء كثيرا لأمة العرب ومصالح العرب، فهو لا يعذرهم إذا انتقموا لأنفسهم، ولا يسوغ انهزامهم بالظروف المتآمرة في المنطقة وإنما يرد ذلك إلى العرب خلقة وتكوينا». (ص٩١)

ويذهب أبو عبد الرحمن في صفحة ٩٥ من كتابه هذا إلى أنه قد يكون عميلا لإسرائيل، ويورد بعض الشواهد من كلام القصيمي حول إسرائيل واليهود ويقارنه بما يراه ويعتقده بحق العرب والمسلمين.

القصيمي نموذجا لنظرية فيتز

ما يهمنا من إيراد حالة الملحد عبد الله القصيمي هنا هو إلقاء الضوء على ذلك الجانب من حياته المبكرة، الذي يتصل بعلاقته بأبيه، وهل كانت علاقة سوية أم أنها مثال آخر تنطبق عليه نظرية بول فيتز.. وهو الجانب المعتم من حياته الذي يقال إنه كان دائما يتحاشى الحديث عنه عندما يأتي الكلام على مراحل طفولته المبكرة.

والده هو الشيخ علي الصعيدي، يذكر عنه تشدده الديني الصارم، وتنحدر أصوله من مصر، ويقال إن أجداده قدموا مع جيش إبراهيم باشا عندما هاجم نجد في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي.

قدم الشيخ علي الصعيدي من حائل إلى القصيم وسكن خب الحلوة الذي يقع إلى الغرب من مدينة بريدة كما ذكرنا، ثم تزوج موضي الرميح، ولما ولدت ابنهما عبد الله وبلغ من السن أربعة أعوام انفصل عنها زوجها علي وتركها هي وابنها عبد الله مهاجرا إلى الشارقة لطلب العلم والتجارة، ثم تزوجها رجل من عائلة الحصيني يقيم في قرية الشقة القريبة من خب الحلوة، ورزقت منه ثلاثة أولاد.

عانى الطفل عبد الله من فراق أبيه الذي انقطعت أخباره تماما، وكانت نشأته بين خب الحلوة والشقة في ظروف سيئة جدا، مما اضطره وهو صبي أن يشتغل أجيراً في فلاحة عبد الرحمن آل عثمان القرعاوي. ثم قرر أخيرا أن يغادر قريته إلى الأبد وهو في سن العاشرة من عمره، حيث دفعه أخواله إلى الهجرة بحثًا عن الرزق، وأصروا على مغادرته لكي يبحث عن أبيه ليطعمه ويكسوه بعد أن ضاقت بهم السبل في تلك الظروف المعيشية السيئة.

ركب الصبي عبد الله القصيمي المخاطر مع أول قافلة اتجهت إلى الرياض في رحلته الطويلة بحثا عن والده. وفي الرياض درس على الشيخ

سعد بن عتيق، وبعد مدة تعرف على وفد من الشارقة جاء لزيارة الرياض، وكانت المصادفة أن رئيس الوفد صديق لوالده ويعرفه تمام المعرفة، فكانت فرصة نادرة لا تتكرر لتحقيق حلمه في لقاء أبيه، وتعويض ما فقده من الحنان والعطف والأبوة، وهكذا رافق الوفد في عودته إلى الشارقة.

هناك على ساحل الخليج العربي كانت الصدمة التي أصابت الفتى؛ إذ لم يكن يتطلع إلى مقابلة والده فحسب، بل إلى ذلك الحنان الذي حُرم منه عشر سنوات، لكن المفاجأة كانت في استقبال والده الذي كان يعمل تاجراً في اللؤلؤ ومتشدداً في تفسيره لكثير من تعاليم الدين الإسلامي، فقد قابله بشيء من الجفوة والقسوة وفرض عليه أسلوباً قاسيا في التربية. وقد كان لهذا اللقاء الجاف أثره العميق في نفسية القصيمي لاحقا.

يقول القصيمي واصفاً ذلك اللقاء في إحدى رسائله التي بعث بها إلى الأستاذ أحمد السباعي: «كانت صدمة قاسية لأكثر وأبعد من حساب، لقد وجدت والدي متديناً متعصباً بلا حدود، لقد حوله الدين والتدين إلى فظاظة أو حول هو الدين والتدين إلى فظاظة.. لقد جاء فظاً بالتفاسير والأسباب التي جاء بها الدين وحاول أن يبدو كذلك ولا يراه رجل دين وداعية صادقاً إلا بقدر ما يجد فيه من العبوس والفظاظة..»

وهكذا نرى واضحا في طفولة عبد الله القصيمي ما اجتمع من أحداث ومواقف متنوعة كلها تصب في التشكيل العميق لنفسيته، فمن انفصال الأب عن أمه، إلى فقد الأب، إلى ارتباط الأم بزوج آخر، إلى الصدمة من الاستقبال البارد من أبيه بعد سنوات الفقد، إلى التشدد والفظاظة في سلوك الأب وربط ذلك بالدين.. كل ذلك كان يترسخ في العقل الباطن للطفل، وقد ذكرنا أن مرحلة الطفولة هي المرحلة الحاسمة في تشكيل اللاوعي (العقل الباطن)، الذي بدوره يشكل حياتنا ومواقفنا وسلوكنا.

ورغم أن حالة الأبوة الناقصة واضحة تماما في حياة القصيمي، إلا أن الملاحظ هو أن توجهه للإلحاد لم يكن مباشرا في مرحلة الطفولة أو بدايات الشباب، وإنما أتى لاحقا كما ذكرنا، بعد أن أبلى بلاء حسنا في الدفاع عن الإسلام والعقيدة. وهذا أمر يثير التساؤل، لكن فهمه ليس بالأمر العسير.

فمن ناحية قد يعود هذا الإلحاد المتأخر إلى الألم المزروع في عقله الباطن من أيام الطفولة، ومثل هذه المشاعر المكبوتة يمكن أن تظهر عند توفر الظروف المناسبة التي تثيرها وتحركها حتى ولو في سن متقدمة- حيث كان يقرأ كثيرا في ثقافة الثورة على السائد- ثم تظهر كما أسلفنا على هيئة تمرد واعتراض. وهذا يدعم ما طرحناه من أن متلازمة الأبوة الناقصة سببها الأساسي الحرمان والمعاناة وليس فقدان فكرة الأبوة المسيحية فقط.

ومن الطبيعي أن يتجه القصيمي، وهو القارئ النهم، إلى ما يوافق حالته النفسية التي تشكلت مع معاناة شديدة، فيهتم بالفلسفات الثائرة على المجتمع وكل ما يدعو إلى الثورة وإثارة الشكوك حول هذه الأقدار التي قذفت به من مكان لآخر، وكان من حبه للزهو والخيلاء أنه يتبنى بعض أفكار بعض الفلاسفة مثل ماركس وكانت وسارتر وبنتام وميل ثم يطرحها وكأنها من بنات أفكاره فينخدع به من لا يعلم، ومن هنا ظهر له صيت في زمنه، ولكن المطلعين يعرفون هذا السلوك، وقد حاصره الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل في إحدى نقاشاته بمصادر أفكاره فأسقط في يده كما روى الشيخ في كتابه «ليلة في جاردن ستي».

وحب الظهور عرض من أعراض اللاتوافقية التي تحدثنا عنها سابقا، وهي تظهر جلية لمن يتتبع كتابات القصيمي بعد إلحاده، فتجده يغرق في استخدام التراكيب اللغوية المفككة التي يصعب فهمها على ما لديه من

ركاكة في الأسلوب.. لاحظ مثلا هذا النص حرفيا من كتابه «العرب ظاهرة صوتية»:

«هل كان محتوما أن نصبح ونظل صغارا لنصاب بكل لغات الغرور وتفاسيره حينما نصبح هوانا وافتضاحا وعارا في كل العيون والعقول والقراءات والتفاسير، في كل المقاييس والحسابات والنماذج، وهل نحن نصبح كل هذا حينا دون حين لا دائما؟ ألسنا كذلك كل الأحيان؟ هل نستطيع أن نكون حينا شيئا وحينا شيئا آخر؟ هل كان محتوما أن نصاب بموهبة غرور لم تصب ولن تصاب بشيء منها أقل الحشرات وقارا واستحياء؟ لماذا نحن وحدنا؟ هل تستطيع أو تقبل أدنى الحشرات أن تصاب بأي غرور لو أنه أو لأنه قد أصبح لها عبور مثل عبورنا؟»

وهذا الأسلوب في الكتابة يذكرنا بشريحة بعض الكتاب الليبراليين في صحافتنا السعودية الذين يعانون من نفس المشكلة، فتقرأ له مقالا بطوله وعرضه ولا تخرج بشيء! وهذه السمة في الكتابة تثير علامات استفهام حول الجدوى من إشغال الصفحات بلا طائل. يقول أحد الكتاب الليبراليين في إحدى الصحف السعودية:

«... صارت الأولوية في الثقافة الجديدة التي تتقدمها الصحافة، للنماذج الموضوعية، حيث تراجعت الوظيفة المعرفية والجمالية، وتزعزعت مقاصد الثقافة كبنية فوقية في إبراز طموحاتها للأصالة والجدية، بمعنى أن مسارها قد تم حرفه أو تصحيحه من منظور صحافي، ومن خلال مثقف عضوي، يتكئ على تنظيرات غرامشي من حيث التلازم البنيوي بين القضايا مع الأدوات، ولكن من منطلق استخدامي، بحيث لا

تتحقق الأفكار الإبداعية وفق المفهوم الوظيفي للثقافة، بقدر ما تتجلى كحاجات ثقافية يومية.»

ويتحدث آخر في صحيفة سعودية أخرى عن «التأثر بالطبيعة الذهنية المكتنزة بما وراء الإلهي الخالص»، والمشكلة أنه يقول في نفس المقال: «في ظني أن هذا واضح». فأقول: في يقيني أن هناك شيئا واضحا جدا!

وإذا نظرنا- ونحن في سياق الحديث عن نزعة حب الظهور والتميز والكبر عند القصيمي- إلى السنن الإلهية المتعلقة بالعجب والكبر كما وردت في القرآن الكريم فإننا نجد أن الله تعالى ذكر عاقبة ذلك بصورة واضحة لا لبس فيها، فهو سبحانه يصرف المتكبرين عن آياته، ويطمس على أبصارهم وعقولهم.. وقد رأيت تغريدات لملحدين يقول أحدهم إنه لا يستطيع أن يقرأ القرآن لأن الله طمس على بصيرته، وهو يقولها متهكما ولا يعلم أنه نطق بالحق! قال الله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

والقصيمي مشهور بالكبر والغطرسة وحب الظهور بعد إلحاده، وشواهد ذلك كثيرة ممن عايشوه وناقشوه كالشيخ أبي عبد الرحمن بن عقيل في كتابه المشار إليه آنفا.

المتاهة الإلحادية عند أدهم

يذكر إسماعيل أدهم في رسالته أنه خلال السنوات ١٩١٩-١٩٢٣م، وهو طفل صغير، كان يطالع كتب الفلسفة الغربية كمباحث هكسلي وارنست هيكل وديكارت وهوبز وهيوم وكانت وسبينوزا، وأنه قرأ لداروين أصل الأنواع وأصل الإنسان، وخرج منهما- كما يقول- مؤمنا بالتطور.

وقد استمر أثناء مرحلة المراهقة في قراءة الفلسفات الإلحادية التي انتعشت في ذلك الوقت، وبعد ذلك ذهب للدراسة في موسكو، بلد الإلحاد الأول، فاجتمعت كل هذه الأسباب لتشكيل فكره الإلحادي، ولم يبق له إلا البحث عن تأسيس علمي لنزعة الإلحاد لديه.

كانت القشة التي قصمت ظهر البعير عنده هي خرافة أزلية الكون. وهي متاهة إلحادية عبر عنها في رسالته من قانون الصدفة الشامل الذي اعتبره دليلا علميا على عدم حاجة الكون إلى خالق، وملخصها ببساطة هو أن إمكانية حدوث أي شيء بالصدفة تتزايد طرديا مع زيادة عمر الزمن، وبالتالي فإن أي شيء لا بد أن يحصل إذا كان الزمن لانهائيا، وهذا الاستنتاج صحيح رياضيا، وهو قائم على اعتبار أن الكون أزلي ليس له بداية. وهنا تكمن مشكلة من يتعلق بوهم يظنه «علما» رغم أنه لم يحسمه الدليل بشروطه العلمية، فيفقد دينه، وهو أعز ما يملك.

الحاصل أن أزلية الكون بعد أن كانت الركيزة الأساسية للإلحاد، أصبحت وهما من الماضي بعد أن ثبتت نظرية الانفجار الكبير (The Big Bang Theory) بالدليل العلمي عام ١٩٦٤م.

طرحت هذه النظرية العلمية بناء على اكتشاف إدوين هابل (Edwin Hubble) عام ١٩٢٩م أن المجرات تبتعد منحسرة بسرعة تتناسب طرديا مع بعدها، فالواضح أنها نتاج انفجار عظيم، ولابد أن الكون كان محصورا في نقطة صغيرة أدى انفجارها إلى حرارة عالية جدا، ولابد أن لهذه الحرارة الهائلة آثارا باقية في أرجاء الكون، وهذا ما رصده العالمان بنزياس (Arno Penzias) وويلسون (Robert Wilson) عام ١٩٦٤م، وحصلا تبعا لذلك على جائزة نوبل عام ١٩٧٨م. فقد رصدا ما يسمى بالإشعاع الخلفي الكوني المايكروي (cosmic microwave background radiation)، وهو إشعاع كهرومغنطيسي يمكن التثبت من وجوده في كل مكان من الفضاء، ولا يمكن تمييز مصدر معين أو ملموس له. فعندما نشاهد السماء بالتليسكوب نرى مسافات واسعة بين النجوم والمجرات (الخلفية) يغلبها السواد، وهذا ما نسميه الخلفية الكونية. ولكن عندما نترك التليسكوب الذي نرصد به الضوء المرئي، ونستخدم تلسكوبا يمكنه رصد الموجات الراديوية، فإنه سوف يصور لنا تلك الإشعاعات. وقد تأكد وجود هذا الإشعاع أيضا عندما أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية لأبحاث الفضاء قمراً صناعياً عام ١٩٨٩م، وهذا أكد صحة نظرية الانفجار الكبير، وبالتالي وضع الإثبات للبداية المطلقة للكون، فسقطت بذلك صحة تطبيق قانون الصدفة الشامل على الكون كما طرحه أدهم.

بالطبع حاول بعض الملاحدة اقتراح نماذج نظرية لنشوء الكون للتخلص من مسألة البداية المطلقة له، لكنها ظلت غالبا حبيسة الأوراق مهملة لا قيمة لها، وبالمصطلح العلمي (now-obsolete)، منها على سبيل المثال نموذج الكون ذي الحالة الثابتة (Steady State Universe) ونموذج الكون المتذبذب (Oscillating Universe) ونموذج الفراغ الكمي (Vacuum Fluctuation) ونموذج التضخم الفوضوي أو ما يسمى بنظرية الأوتار

(String Theory - Chaotic Inflation) ونموذج الجاذبية الكمومية (quantum gravity model) ونموذج إكبايروتيك (Ekpyrotic universe)، وهي في عمومها نظريات تسعى للتخلص من صفة الفردية (singularity) وبالتالي البداية المطلقة للكون، ولكنها إما تم دحضها أو لا يقوم شيء منها عند الفحص العلمي والرياضي.

إسماعيل أدهم ونظرية فيتز

يتحدث إسماعيل أدهم عن حياته المبكرة في رسالته «لماذا أنا ملحد»، التي تتكون من أربع عشرة صفحة، فيذكر أن أمه النصرانية ماتت وهو في الثانية من عمره، وعاش أيام طفولته مع شقيقتيه في تركيا حتى أواخر الحرب العالمية الأولى، فكانتا تلقنانه تعاليم النصرانية وتأخذانه إلى الكنيسة كل أحد، حيث كان أبوه في تلك الأثناء منشغلا عن أسرته بالحرب. ويصف انشغال أبيه عنه فيقول «لم أعرفه أو أتعرف عليه حتى وضعت الحرب أوزارها ودخل الحلفاء الأستانة.» (لماذا أنا ملحد، ص ٥)

ثم يقول إن بُعد والده عنه لم يمنعه من «فرض سيطرته» عليه من الناحية الدينية، حيث كلف الأب زوج اخته بتعليمه ومتابعة أدائه لصلاة التراويح وصلاة الجمعة وصيام رمضان وهو طفل صغير يشق عليه كل ذلك، وكان ممنوعا من الخروج ومخالطة أترابه من الأطفال.

تبدو مشكلة الأبوة الناقصة واضحة جلية في حياة إسماعيل أدهم، فالذي يظهر من نشأته كما نرى هو أنه بدأ حياته بفقد أمه مع أب غير موجود إلا نادرا، وإن وجد فتربيته تتسم بالغلو والقسوة دون اهتمام بالجانب الأبوي.

بين أسلوب التربية القسري على العبادات الإسلامية من جهة الأب وأقاربه وهو بعدُ طفل صغير وبين الانتماء للنصرانية المحرفة التي لا

تستقيم مع العقل من ناحية الأم والأختين، نتج هذا البناء العقدي المتهالك، وتهيأت من هذا الوضع النفسي غير المستقر أرضا جاهزة لتقبل وتلقي الفلسفات الإلحادية واهتمامه بها كما رأينا، ثم ذهابه إلى روسيا، بلد الإلحاد في ذلك الوقت، ودراسته فيها، ثم توج كل ذلك بنتائج منطقية على تلك المقدمات العلمية غير الصحيحة.

والطريف في الأمر أن إسماعيل أدهم يعبر في رسالته عن دهشته وعجبه أن وجد نفسه أسعد حالا وأكثر اطمئنانا بعد إلحاده من حالته حينما كان يغالب نفسه للاحتفاظ بمعتقده الديني، ولكن الواقع يكذب ذلك، فقد وُجِدَتْ جثة إسماعيل أدهم في مساء ٢٣ يوليو ١٩٤٠م طافية على شاطئ «جليم» بالإسكندرية في مياه البحر المتوسط، حيث عثرت الشرطة في معطفه على رسالة بخط يده موجهة إلى رئيس النيابة يخبره فيها بأنه انتحر كرها في الحياة وزهدا فيها، ويوصي بالرسالة أن تُحرق جثته ويشرّح دماغه ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وعودا على بدء، فلعل مما يثير التأمل في الطرح الذي يطرحه بول فيتز أهمية مرحلة الطفولة في تشكيل المواقف الحياتية وما شابهها من مواقف أخرى حاسمة، فلا أحد، على سبيل المثال، سيأخذ على فيتز إغفال التأثير النفسي لفقد الأب عند الرجال البالغين فيما يتعلق بالميل للإلحاد!

أهمية مرحلة الطفولة في تشكيل مواقفنا وأفكارنا وسلوكنا في بقية المراحل الحياتية سنتطرق إليها بإيجاز في الموضوع التالي بإذن الله.

مرحلة تشكيل اللاوعي

هناك سؤال مشروع قد يخطر في الذهن عند مطالعة الدراسات النفسية التي تهتم بتحليل السلوك وأنماط الشخصية، مثل دراسة فيتز التي تحدثنا عنها، وموضوع الإلحاد النفسي الذي نحن بصدده الآن، وهو: لماذا نهتم عند دراسة الظواهر السلوكية والفكرية بالتركيز على مرحلة الطفولة؟

من المعروف لدى المهتمين بعلم النفس أن اللاوعي (العقل الباطن) هو الذي يتحكم بالجزء الأكبر من حياتنا. وكما يقول البروفيسور بروس لبتون (Bruce Lipton) فإن العقل الباطن يساهم بما مقداره ٩٥ بالمائة من تشغيل جيناتنا ومكوناتنا البيولوجية وسلوكنا في حياتنا اليومية.

وتعتبر السنوات الأولى من العمر هي أكثر السنوات قابلية للإيحاء، مع تفاوت فيها من طفل إلى آخر، فأكثر مراحل البرمجة الإدراكية وتشكيل اللاوعي (العقل الباطن) تتم منذ الولادة إلى سن السادسة، حيث يعمل الدماغ على تسجيل كل التجارب الحسية والعمليات الحركية المعقدة كالكلام والزحف والوقوف والمشي والركض والقفز... الخ. وفي الوقت نفسه فإن أنظمة الحواس لدى الطفل تكون مشغولة تماما باستقبال كميات ضخمة من المعلومات عن العالم المحيط وكيفية عمله، ولهذا نلاحظ أن الطفل يتلقف كل ما يدور حوله ويبحث عن تفسير له بطرح الأسئلة على والديه مرارا وتكرارا.

وعن طريق مراقبة الطفل لسلوك المحيطين به- كالوالدين والإخوة والأقارب- يتعلم الطفل كيف يفرق بين السلوك المقبول والسلوك غير المقبول اجتماعيا. ولهذا فإن ما يدركه الطفل خلال السنوات الست الأولى من عمره في محيطه الذي يعيش فيه يلعب دورا حاسما في تكوين الأساس للبرامج اللاواعية في عقله الباطن، التي تشكل ملامح السلوك والشخصية في حياة الفرد.

وقد أمكن قياس هذا الفرق في سرعة التعلم بين مرحلة السنوات الست وبقية المراحل العمرية عن طريق دراسة موجات الدماغ بين البالغين والأطفال، حيث يوضح الرسم الكهربائي للدماغ (EEG) عند البالغين أن النشاط الكهربائي العصبي يرتبط بحالات الوعي المختلفة، ويتضح منه أن دماغ الشخص البالغ يعمل على خمسة مستويات مختلفة من الذبذبة على الأقل، وكل منها مرتبط بحالة مختلفة من حالات الدماغ.

تتنقل الترددات في الرسم الكهربائي للدماغ عند البالغين من حالة إلى أخرى عبر نطاق كامل من الذبذبات أثناء عمل الدماغ، في حين تسجل ذبذبات الدماغ عند الأطفال الصغار سلوكا مغايرا تماما، حيث تتصاعد قيم التذبذب عبر مستويات تدريجية مع مرور الوقت.

نشاط الدماغ	مدى الذبذبة/ هيرتز	حالة البالغ بالنسبة لمدى الذبذبة
دلتا	٠.٥-٤	النوم- اللاوعي
ثيتا	٤-٨	الخيال- الاستغراق في التفكير الحالم
ألفا	٨-١٢	الوعي الهادئ
بيتا	١٢-٣٥	الوعي بتركيز
جاما	٣٥ فأعلى	قمة الأداء

ويكون النشاط الغالب للمخ خلال السنتين الأوليين من عمر الطفل في تردد (دلتا)، وهو أقل تردد في الرسم الكهربائي للدماغ، وأما في المرحلة العمرية من سنتين إلى ست سنوات فإن نشاط المخ يصعد إلى نطاق

(ثيتا)، وخلال هذه الحالة يغلب على الأطفال الخلط بين عالم الخيال وعالم الواقع.

وللنطاقين (دلتا) و(ثيتا) الغالبين في المرحلة العمرية الأقل من ست سنوات دلالة قوية على أن دماغ الطفل يعمل في مستويات أقل من مستوى الوعي. وهذان النطاقان هما النطاقان اللذان تحدث عندهما غشية التنويم الإيحائي، وهي نفس الحالة العصبية التي يستخدمها المعالج بالتنويم الإيحائي عند علاج مرضاه لبرمجة العقل الباطن بسلوك جديد.

أي كأن الطفل يقضي سنواته الست الأولى في مرحلة تنويم إيحائي!

فخلال هذه الفترة يتم «تخزين» إدراكاته مباشرة إلى العقل الباطن دون تمييز أو تصفية من قبل العقل الواعي التحليلي، لأنه لم يتم تشكيله بصورة كاملة، وعليه فإن كل ما يدور حولنا وما يجري من تفاعل بيننا وبين المحيط يتشكل كمخزون من التجارب دون حكم ذاتي بالخطأ والصواب إلا ما نشعر به من ألم حسي أو أذى، أو ما يملى علينا من توجيهات وتعليمات. فالأمر بكل بساطة نوع من البرمجة.

يمكنك أن تلاحظ غياب الوعي التحليلي عند الطفل الصغير عندما يطلب منك مثلا في منتصف الليل أن تأخذه إلى الملاهي، فتحاول إقناعه بأن الملاهي مغلقة في هذا الوقت وأنهم قد ذهبوا إلى النوم.. غالبا ستجد أنه يطرح عليك نفس الطلب مرة ثانية وثالثة. والسبب هو أن تجربته الحسية في الملاهي لا تقارن بما تطرحه عليه من أفكار مجردة تحتاج إلى وعي تحليلي حول أوقات العمل وأوقات النوم.

الرسم الكهربائي للدماغ:

				بيتا	
منطقة البرمجة			ألفا		
			ثيتا		
		دلتا			
العمر:	٠	٢	٦		١٢

وهذا يتفق مع ما ورد في صحيح البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ.» فالعقيدة المخالفة للفطرة لا يمكن زراعتها إلا بعد الولادة وخلال هذه الفترة التي يفقد فيها الطفل التمييز.

إن غياب حالة المعالجة الواعية (ألفا) والانغماس فيما يشبه حالة الغشية الإيحائية أثناء المراحل التكوينية من عمر الطفل ضرورة منطقية لكي يتمكن الطفل من استيعاب كمية غزيرة من المدركات؛ فالمعالجة الواعية للمعلومات عند البالغين تتطلب قاعدة بيانات جاهزة من تلك المدركات التي تم تعلمها في الصغر. وعلى ذلك فإنه قبل أن يمارس أحدنا الوعي الذاتي لا بد أن يكون دماغه قد قام بمهمته الأساسية لتكوين الإدراك عن طريق حفظ التجارب والمشاهدات في اللاوعي.

وعلى أية حال، فإن تكوين الإدراك بهذه الطريقة له تبعات قد لا تكون محمودة، بحسب المحيط الذي يستقبل منه الوعي، وهذا قد لا يؤثر سلبا على الفرد فحسب، وإنما قد يؤثر على سياق اجتماعي كامل من حيث الأفكار والعقائد والسلوك والمواقف والتجارب التي تتم برمجتها. وعلى

ذلك نلاحظ أن القرآن يحض كثيرا على التفكر والتدبر وإعمال العقل (الوعي) لتجاوز ما قد يكون رسخ من عقائد باطلة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران:١٩٠- ١٩١]

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[يونس: ١٠٠]

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣]

وفي الوقت نفسه ينهى القرآن عن الاتباع الأعمى لما زرعه الآباء والأجداد من أفكار تخالف الفطرة والتدبر، والانقياد لها، ولعل في ذكر اتباع الآباء مرارا في آيات كثيرة إشارة إلى ما يتم غرسه من عقائد وسلوك في فترة الأبوة التي يتركز أداؤها في تلك المرحلة العمرية المبكرة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٧٨]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٥٢-٥٣]

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٤]

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]

قد يتبادر إلى الذهن أن هذه البرمجة مسألة وجودية جبرية لا يمكن التخلص منها، وهذا ما يمكن ملاحظته من طرح بعض ملاحدة تويتر المبتدئين. فما ذنب الملحد الذي تمت برمجته مثلا على الإلحاد؟ وكيف يحاسب على هذا الوضع الحتمي الذي وجد نفسه فيه؟

الإجابة ببساطة هي أن هذا اللاوعي (العقل الباطن) الذي يشبه الحاسوب العملاق ويقوم بالتحكم في نسبة كبيرة من سلوكنا وأفكارنا وحياتنا ليس له سلطان على الإرادة المباشرة للعقل الواعي! وهذا العقل الواعي البسيط هو بمثابة منصة قادرة على تشكيل ومعالجة المدركات مع مهارات التخيل لتوليد عدد غير محدود من الأفكار والنتائج السلوكية. وهو الذي يؤهلنا لواحدة من أهم خصائصنا التي وهبها الله لنا، وسيحاسبنا عليها، وهي الإرادة الحرة.[٥]

---

٥ رغم أن وجود اللاوعي (العقل الباطن) أمر محسوم عند المختصين بعلم النفس لسهولة رصد مظاهره وآثاره، إلا أنني لاحظت ترددا وربما امتناعا عن قبوله عند بعض الإخوة المختصين في العلوم الشرعية، وقد يرون أن وجوده أصلا ضرب من الوهم. ويبدو لي أن النفور يعود في الأصل إلى أمرين؛ الأول عدم اهتمامهم في المجال النفسي، والثاني تحسسهم من تصنيفات الوعي واللاوعي وتوظيفات سيجموند فرويد لها. ولا شك أننا جميعا نمقت فرويد، فهو صديق هرتزل وعضو

إذا كان المتلقي العاقل يعالج الرسالة التي تصله معالجة عقلية قبل أن يتخذ منها موقفا واضحا، فإن صاحب النوازع النفسية والهوى لا يمكنه أن يلبس دعواه لباسا يبدو عقلانيا ويدعي الموضوعية إلا بتوظيف بعض المغالطات المنطقية للتدليس على المتلقي.

جمعية بناي برث اليهودية، ومن الصهاينة خدموا الصهيونية العالمية، وقد عمل جاهدا لتفسير السلوك الإنساني تفسيرا جنسيا منحطا.. لكن شهرة فرويد في هذه الجوانب المنحرفة لا يلزم منها بالضرورة أن يكون الوعي واللاوعي تصنيفا خاطئا.

لندع كل شيء جانبا، ولنتأمل ذلك المصلي الذي ذكره الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله وهو يقف بجانبه في الصلاة عندما نهض واقفا من السجود وبدأ يقرأ التشهد بدلا من الفاتحة.. لاشك أن المصلي لم يكن خاشعا وأنه سهى في صلاته، وربما كان ذهنه مشغولا بشئونه اليومية، ولكن السؤال المطروح هو: إذا كانت قراءته التشهد في ذلك الموقف لا تحصل إلا من خلال عملية عقلية كاملة تشتغل من خلالها أجزاء من المخ وأعضاء الكلام من لسان وشفتين وحبال صوتية وغيرها، فإذا كان الرجل ساهيا تماما وعقله الواعي كان في واد آخر، فكيف تم ذلك إذن؟ الحاصل أن قراءة التشهد تلك كانت تجري بواسطة عقل آخر.. إن شئت أن تسميه (لاوعيا) أو (عقلا باطنا) أو (ذهنا خفيا) أو أي اسم تختاره فلا بأس.. لكنه عقل آخر غير العقل الواعي.

هل وجدت نفسك تقود سيارتك دون أن تشعر إلى منزلك السابق بعد أن انتقلت إلى منزل جديد؟ بالتأكيد أنت فعلت ذلك دون وعي، وربما كان وعيك مشغولا بمكالمة أو حديث مع راكب بجانبك.. لكنه لم يتم دون عقل، فالعقل ضروري لكل أمر نقوم به وإن لم يكن عقلا واعيا.

ثم كيف نفسر سلوك المصاب بالوسواس القهري والفوبيا والرهاب؟ إذا كان المصاب بوسواس النظافة يعلم ويعي تماما أن غسل يديه مرة واحدة بالصابون كاف لتنظيفهما، فلماذا يغسلهما عشر مرات؟ ولماذا يرتجف المصاب بالرهاب الاجتماعي أمام الجمهور وهو يعي جيدا أنهم ليسوا أعداءه ولن يؤذوه؟ الاندفاع لغسل اليدين دون داع والارتباك غير المبرر وعيا هما نوع من السلوك الذي يديره اللاوعي.

فاللاوعي ليس مفهوما جديدا أو مستحدثا، وإنما كل ما في الأمر هو أنه جرى تصنيفه وتحديد مفهومه. وهو باختصار ذلك المستودع الذي تجتمع فيه كل تجاربنا الواعية ثم إنه يدير بناء عليها تصرفاتِنا وأفكارنا غير الواعية.

كثيرا ما يقوم طرح الملاحدة على مغالطات منطقية، وهذا مشاهد بكثرة في طروحاتهم على برامج التواصل الاجتماعي. ونريد هنا أن نتحدث عن الاستدلال المنطقي باختصار، ثم نتطرق لأشهر المغالطات المنطقية التي يجري توظيفها وتمريرها على المتلقي الذي قد لا يعيها جيدا، وهي مغالطات شهيرة ومعروفة لدى المهتمين بالحوارات والمناظرات، نقلنا ما يهمنا منها هنا بتصرف لكي تكون وسيلة لاستكشاف المحاور الملحد الذي يحاور عن هوى.

الاستدلال المنطقي

للاستدلال المنطقي عدة أنواع كالاستدلال الاستنباطي والاستدلال التمثيلي والاستدلال الاستقرائي، لكن يهمنا هنا الاستدلال الاستنباطي، لأنه هو المستخدم غالبا في مجالات النقاش، وهو يسير من العام إلى الخاص، ويقوم على استخلاص نتيجة (ن) من خلال مقدمات (م١، م٢،...) إما أن تكون مثبتة أو أنها مسلّمات. وبعبارة أخرى: الاستدلال المنطقي الاستنباطي هو الخروج من المقدمات المنطقية بنتائج حتمية وحيدة غير قابلة للاحتمالات. أمثلة:

مثال١:

- م١: كل الملحدين تطوريون
- م٢: بوب ملحد
- ن: بوب تطوري.

مثال٢:

- م١: إذا أمطرت السماء فهي ملبدة بالغيوم
- م٢: السماء تمطر الآن
- ن: السماء الآن ملبدة بالغيوم.

وسنمثل الدليل العقلي على وجود الخالق بالاستدلال المنطقي هكذا:

أولا-

مقدمة١: كل شيء له بداية مطلقة فهو وجد من العدم

مقدمة٢: الكون له بداية مطلقة (حقيقة علمية)

نتيجة١: الكون وجد من العدم.

ثانيا-

مقدمة١: القائم بالفعل يجب أن يكون موجودا قبل قيام الفعل

مقدمة٢: الكون لم يكن موجودا قبل فعل الوجود

النتيجة٢: الكون لم يوجد نفسه.

ثالثا-

مقدمة١: كل فعل يحتاج إلى فاعل (حقيقة علمية)

مقدمة٢: وجود الكون من العدم فعل

نتيجة٣: يوجد فاعل سابق لوجود الكون.

هذه النتائج الثلاث هي نتائج منطقية حتمية مثبتة واجبة وليس لها بدائل.. أي أنه لا يوجد فيها أي طعن ولا يمكن استبعادها.

سنعتبر هذه النتائج مقدمات لنخلص للنتيجة النهائية:

مقدمة١: الكون وجد من العدم

مقدمة٢: الكون لم يوجد نفسه

مقدمة٣: يوجد فاعل سابق لوجود الكون

نتيجة٤: يوجد خالق للكون.

وهذا هو المطلوب إثباته.

وفي المنطق يجب إذا وصلنا إلى نتيجة مثبتة غير قابلة للنقاش أن نحترمها لأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة أخرى تناقضها أبدا ما دام أن استدلالنا صحيح.

يبقى السؤال الذي يطرح أحيانا: هل للخالق خالق؟

وهذا سؤال خاطئ للأسباب التالية:

- **قبول هذا السؤال يوقعنا فيما يسمى بـ «الدور» أو «الاستدلال الدائري» (circular reasoning) وهذه من المغالطات المنطقية كما سنرى، حيث تكون النتيجة هي مقدمة لنفسها.**
- **قبول هذا السؤال يناقض النتيجة التي توصلنا إليها بالدليل المنطقي.. ونقض النتيجة المثبتة غير ممكن.**
- **فيما يخص العدم والوجود، فإن التقسيم إلى خالق ومخلوق أمر حتمي كما ثبت، وتداخلهما خطأ منطقي، حيث أنه يلزم للاستدلال المنطقي أن لا تتداخل المفردات من حيث الدلالة، فالخلط في الدلالة بين الخالق والمخلوق يعد خللا في التفكير المنطقي.**

فما المشكلة؟ وكيف يكون الخالق موجودا وليس له موجد؟

الإجابة هي أن هذا الخالق يجب أن يكون أزليا (ليس له بداية) لكي يستقيم المنطق، وهو ليس كالمخلوق (الكون) الذي يمكننا إثبات أن له بداية بالأدلة العلمية كالقانون الثاني من الديناميكا الحرارية والانفجار الكبير وغيرهما.

النتيجة: وجود خالق أزلي للكون.

المغالطات المنطقية

مغالطة الاحتكام إلى الجهل Appeal to Ignorance

هذه المغالطة هي أشهر مغالطة يستخدمها الملاحدة، وهي تتلخص في أن عدم وجود الدليل هو بحد ذاته دليل. فعندما تسأله مثلا: هل أنت متأكد من عدم وجود خالق؟ قد يجيبك إن لم يكن ملحدا مطلعا على المغالطات المنطقية: نعم متأكد! فتسأله: لماذا أنت متأكد؟ فيقول: لأنه لا يوجد دليل على وجود الخالق! بالطبع الاستدلال المنطقي على وجود الخالق معروف كما رأينا، ولكن حتى لو فرضنا أنه لا دليل على وجود الخالق فإن عدم إطلاعنا على مثل هذا الدليل لا يعني عدم الوجود. وأبسط مثال على ذلك يمكننا أن نطرحه على مثل هذا الملحد هو أن نسأله: هل كانت القارة الأمريكية موجودة عام ١٠٠٠ ميلادية؟ سيقول: بالتأكيد.. ولكن حسب استدلاله فإنها لم تكن موجودة في تلك السنة لأنه لم يكن هناك أي دليل على وجودها.

ومن الأمثلة على مغالطة اعتبار عدم الدليل دليلا هو قول جحا إن عدد نجوم السماء ٥١٦٩٩ نجمة. فلما كذبه أحد جلسائه، قال له: ها هي النجوم فوقك، قم عدها لتثبت كذبي.

وخلاصة الإشكال في هذه المغالطة هو عدم الالتزام بأن يكون عبء البينة على المدعي، وإنما يتم وضعه على المنكر، وهذا مخالف للقاعدة المعروفة: البينة على المدعي.. فيكون الادعاء حقا ما لم يبرهن أحد أنه باطل، والادعاء هنا بالطبع هو عدم وجود خالق.

- لا يوجد خالق لأنه لا دليل عندي على وجوده.
(الخطأ هو ادعاء عدم وجود خالق لعدم معرفة الدليل)

- **هذا المغسلة أضاعت ملابسي والدليل أنها لا تستطيع إثبات عدم استلامها لملابسي.**
- **العنقاء حقيقة لأنه لا يوجد دليل ينفي وجودها.**
- **لا يوجد أحد في هذه الغرفة المغلقة لأنه ليس لدي دليل على وجود أحد فيها.**

مغالطة الاحتكام إلى الأغلبية

هي البرهنة على أن الفكرة صحيحة لأن الأغلبية يؤمنون بها.

- **أكثر علماء الأحياء يؤمنون بصحة التطور، فهي نظرية ثابتة علميا. (الصحيح أن أكثرهم يؤمنون به ليس لثبوته بالدليل العلمي وإنما لأن البديل هو الدين، والمجتمع العلمي الغربي يخشى كثيرا من عودة الكنيسة ومحاكم التفتيش التي قتلت العلماء)**
- **قاد هتلر شعبه إلى الهاوية بتأييد عارم**
- **حظي الرق يوما بتأييد الأغلبية في الولايات المتحدة**
- **كانت الأرض هي مركز الكون باعتقاد الجميع**

مغالطة الاستدلال الدائري Circular Reasoning

هي البرهنة على المسألة بنفسها، أي أن نعيد صياغة المقدمة ثم نجعلها نتيجة، فينخدع المتلقي ويظنها نتيجة مختلفة، وربما تأتي بطريقة ملتوية دون أن نعيد الصياغة. أمثلة:

- **أي عنصر أقل كثافة من الماء لابد أن يطفو فوقه، لأن الأشياء الأقل كثافة لا تغطس. (كأننا نقول: أي عنصر أقل كثافة من الماء لابد أن يطفو فوقه لأنه أقل كثافة منه)**

- الطالب: أنا لم أفعلها ويشهد على كلامي ناصر. المعلم: وكيف أثق بمصداقية ناصر؟ الطالب: أنا أضمن صدقه يا أستاذ.

وقد يتحول الاستدلال الدائري من مغالطة إلى استدلال صحيح بحسب موقف المتلقي من الدليل. فمثلا هذا الحوار إذا كان بين مسلم ومسلم فهو استدلال صحيح وإذا كان بين مسلم وكافر فهو استدلال دائري نظرا لاختلاف المرجعية المعتبرة في الاستدلال بين المسلم والكافر:

- سيبقى القرآن محفوظا من أي تحريف. - ما الدليل على ذلك؟ - الدليل هو قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

فالمسلم يؤمن بنزول القرآن كاملا ومن هنا نثبت له الحفظ، أما الكافر فهو أصلا لا يؤمن بحجية القرآن.

مغالطة التعميم Generalization

مغالطة التعميم هي استخلاص نتيجة عن خصائص الفئة كلها من خلال خصائص عينة منها. وكلما كانت تلك العينة ممثلة للفئة والفئة متجانسة كلما كان التعميم أقل مغالطة، لذلك يحرص الباحثون عند إجراء الدراسات أو المسح على فئات كبيرة أن يكتفوا بعينة البحث شريطة أن تكون ممثلة لكافة عناصر الفئة، ومن أشهر ما يتداوله الناس التعميم في أوصاف الجنسيات أو المجاميع البشرية بناء على تجارب شخصية محدودة. أمثلة على مغالطة التعميم:

- جارنا الملتحي يعاملني بجفوة. هؤلاء (المطاوعة) قساة أجلاف.

- **كلما شاهدت الأخبار وجدت فيها خبرا عن تفجير قام به مسلمون، إذا المسلمون إرهابيون. (هذا المثال ينطبق أيضا على مغالطة «النصوع المضلل» وهي تندرج ضمن مغالطة التعميم، وفيها يكون الاستجابة النفسية الناتجة من الوهج والتركيز الإعلامي على العناصر سببا في التعميم على الفئة، ومثله أن مسافرا نجا من حادث طائرة يرى أن مخاطر السفر بالطائرة أكثر من مخاطر السفر في وسائل النقل الأخرى)**
- **ما إن قدمت إلى لندن حتى استقبلني موظف الجمارك بالكثير من الدماثة، وما إن ركبت مع سائق التاكسي حتى وجدته كريما باسما، فعرفت أن الانجليز شعب ودود دمث.**
- **التفاحات على وجه الصندوق تبدو نضرة وشهية، إذا جميع التفاحات في الصندوق ممتازة.**

تجاهل المطلوب (الحيدة) Missing the Point

قد يتجاهل المرء نقطة النقاش ويحيد إلى إثبات نقطة أخرى، فيبدو إثباته معقولا وينخدع به المقابل، ولكن في الحقيقة أن إثباته لا قيمة له لأنه لا يصب في موضوع النقاش. أمثلة على الحيدة:

- **عندما يطرح الملحد شبهات حول النبوة أو حول القرآن وهو أصلا لا يؤمن بوجود الخالق، هنا يجب أن يعاد إلى موضوع وجود الخالق.**
- **عندما تناقش الربوبي عن صحة الإسلام فيتحدث عن القتل والنحر الذي تقوم به داعش.**

- **عندما يركز محامي الادعاء في جريمة قتل على فظاعة الجريمة التي ارتكبت ودمويتها بدلا من التركيز على أدلة إدانة المتهم.**

مغالطة الرنجة الحمراء

الرنجة الحمراء هي نوع من السمك تحبها الكلاب، يقوم المجرمون الهاربون من السجن بسحبها جانبا عن طريق هروبهم فإذا هربوا ذهبت الكلاب إلى الرنجة الحمراء وتركتهم. ويعمد مستخدمو هذه المغالطة إلى استهلاك الخصم في تفاصيل براقة لكنها تافهة وخارجة عن موضوع النقاش فينشغل بها الخصم. لكن قد تكون المواضيع الجانبية مرتبطة عضويا بموضوع النقاش، وهنا لا يعتبر الاهتمام بها مغالطة. أمثلة على مغالطة الرنجة الحمراء:

- **(س) أنت تدّعي عدم وجود الخالق، هل لديك من دليل على دعواك؟ (ج) ألا تعلم أن دينك قام على الحروب ودفع الجزية وحد الردة؟**
- **كيف تريد حظر التدخين؟ إن التدخين أهون كثيرا من تعاطي الخمور، ألم تعلم أن الخمر هي أم الخبائث؟ وأنها تكلف العالم سنويا في استهلاكها وضررها والكوارث الناتجة عنها أكثر من ترليون دولار؟**
- **هناك لغط حول حظر استخدام المبيدات في حقول الخضروات والفواكه، غير أن كثيرا من هذه الأطعمة ضروري لصحتنا، فالجزر مصدر أساسي لفيتامين أ والبرتقال يحوي نسبة عالية من فيتامين ج...**

مغالطة الشّخْصَنَة ad hominem

تقوم مغالطة الشخصنة على الطعن في شخص الخصم بدلا من رد حجته، والأمل منها هو سقوط الدعوى عند تشويه قائلها لدى السامع. ولكن عندما تكون العيوب الشخصية مرتبطة كاتهام قاض بالتزوير فإنها لا تعد مغالطة. ومغالطة الشخصنة تنقسم بدورها إلى أربعة أنواع من المغالطات: (١) القدح الشخصي أو السب، (٢) التعريض بالظروف الشخصية، (٣) أنت أيضا تفعل ذلك، (٤) تسميم البئر (تشويه المصدر بأكمله). وإليك أمثلة لها:

- **كيف لي أن أناقش شخصا يرتكب مثل هذه الأخطاء الإملائية؟**
- **كان آينشتاين موظفا حقيرا عندما كتب نظريته، ولهذا فنظريته لا تخلو من الأخطاء.**
- **كيف لي أن أستمع إلى نصيحة هذا الطبيب بخفض وزني إذا كان هو نفسه بدينا كالدب؟**
- **هذا المتعصب البغيض، لا نقبل منه أية كلمة.**

مغالطة الاحتكام إلى السلطة Appeal to Authority

يقع المرء في مغالطة الاحتكام إلى السلطة عندما يعتقد بصحة قضية أو فكرة علمية يمكن التحقق منها، ولكن لا سند لها إلا سلطة قائلها. وقد تكون الفكرة صائبة بالطبع ولكن المغالطة تكمن في اعتبار السلطة بديلا للدليل. وأما الاستعانة بالخبراء وقبول أقوالهم فهذا لا يعد مغالطة بشرط أن هؤلاء الخبراء يستطيعون تقديم الدليل.

- **التطور حقيقة علمية لأن أكثر علماء الأحياء يعتبرونه كذلك. (لا يوجد دليل)**

- **التدخين ليس منه ضرر كبير على غير المدخنين، هكذا تقول دراسة أجراها فريق الأطباء الباحثين لدى شركة مارلبورو.**
- **يقول المختصون إن العلم يتعارض مع الإيمان. (خبرة غير محددة)**

مغالطة استدرار العطف Appeal to Pity

تقع هذه المغالطة عندما يدفع بالشفقة والعاطفة لتقوم مقام البينة والدليل، ولكن المغالطة لا تقع، على كل حال، عندما تكون العاطفة أو الشفقة لها مساس مباشر بالموضوع، فمثلا يمكنني أن أشتري نفس الصحيفة من البائع الكفيف لأشجعه على طلب الرزق، أو أمنح فرصة أخرى للطالب الذي أصيب بحادث سيارة وهو قادم إلى الامتحان. أمثلة على مغالطة استدرار العطف:

- **كيف ترفض رسالتي للدكتوراه؟ لقد عكفت عليها سبع سنوات متواصلة.**
- **هذا الغلام الذي قام بقتل والديه ساعة انفعال يكفيه أنه سيعيش يتيما محروما من الأبوين.**
- **كيف تقول إن الكرة خارج الخط؟ إنها داخله.. ثم إني مهزوم بعشرة إلى واحد.**
- **ينبغي أن تمنحني درجة ممتازة، فجدتي مريضة، ولو سمعت برسوبي قد تموت بنوبة قلبية.**

مغالطة الاحتكام إلى عامة الناس

قوام هذه المغالطة هو الاحتكام إلى الناس على حساب العقل، ومعلوم أن اتساع نطاق الاعتقاد عند الناس بأمر ما لا يعني صحته. وربما

كان منبع هذه المغالطة هو نزعة مجاراة القطيع. وهذه أمثلة على المغالطة:

- خطأ شائع خير من صواب مهجور.

- ما الخطأ في ذلك؟ كل الناس يرون صحته.

- كل جامعات العالم تقوم بتدريس نظرية التطور، فهي حقيقة. (الكثير منها أيضا يقوم بتدريس الهندوسية والأديان المحرفة)

مغالطة الاحتكام إلى القوة

تعني هذه المغالطة اللجوء إلى التهديد والوعيد من أجل إثبات دعوى، ومرتكز الخطأ فيها هو أن التهديد لا يعمل في الحقيقة على مستوى القناعة الفكرية؛ فيمكنك مثلا أن تفرض السلوك القويم، ولكنك لن تستطيع فرض القناعات بالقوة. والانصياع ليس دائما دليلا على الاقتناع؛ فقد أصر جيوردانو برونو على آرائه الفلكية فقطعت محاكم التفتيش لسانه وأعدمته حرقا، أما جاليليو فأذعن لهم حول نفس الآراء وسلِم.

- قال المدير للموظف: ينبغي أن توافق على السياسات الجديدة للشركة، هذا إذا كنت تريد الحفاظ على وظيفتك.

- سأبلغ عنك إدارة تويتر إذا لم توقف هذه التغريدات الوهابية التي تخالف روح العصر.

مغالطة الاحتكام إلى النتائج

من المغالطة أن نستخدم نتائج الفكرة أو الاعتقاد كدليل على كذب هذا الاعتقاد أو صدقه. والقضية الصادقة هي قضية صادقة بغض النظر عن مشاعرنا وردة فعلنا تجاه نتائجها. من أمثلة هذه المغالطة:

- من المستحيل أن تقع حرب نووية؛ إن ذلك كفيل بأن يصيبني بالهلع فلا أذوق طعما للنوم.

مغالطة القسمة الثنائية

عندما تبني حجتك على أساس خيارين اثنين لا ثالث لهما رغم وجود خيارات أخرى متعددة فأنت تمارس مغالطة القسمة الثنائية. وهي تنتشر بين الباعة والمسوقين الذين يجعلون العميل بين خيارين أفضلهما السلعة المقصودة. أمثلة على هذه المغالطة:

- إما أنك معي أو ضدي.

- إذا لم تقف معنا في حربنا هذه فانت جبان خائن.

مغالطة السبب الزائف

تنتج هذه المغالطة من الخلط بين السببية والصدفة، وأحيانا نتيجة التفسير الخاطئ للسببية. فإما أن تكون العلاقة السببية معدومة والأمر مجرد صدفة أو يكون هناك سبب أصلي غير ظاهر أو أن يكون فهم العلاقة عكسي، وهنا مثال لكل حالة:

- وجدت ارتباطات شبه تامة بين معدل الوفيات في حيدر أباد في الهند خلال الأعوام ١٩١١-١٩١٩ وبين تغييرات في عضوية الرابطة الدولية لعلماء الميكانيكا خلال نفس الفترة.

- وُجد ارتباط قوي بين معدلات بيع الآيسكريم وبين معدلات الجريمة. (الصحيح هو أن ارتفاع حرارة الجو هو السبب وراء ارتفاع مبيعات الآيسكريم وارتفاع معدلات الجريمة)

- وُجد ارتباط بين معدل امتلاك الأسلحة وبين معدل انتشار الجريمة، ولهذا فامتلاك الأسلحة يؤدي

إلى انتشار الجريمة. (الصحيح هو أن انتشار الجريمة يدفع الأهالي لامتلاك الأسلحة للدفاع عن أنفسهم)

مغالطة السؤال المشحون

السؤال المشحون هو السؤال الذي يحمل افتراضا غير صحيح، والمثال الشهير لذلك: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ أو: هل توقفت عن تعاطي المخدرات؟ ومغالطة السؤال المشحون يكثر استخدامها من قبل الملاحدة عندما يناقشون المسلمين، لأن أي جواب مباشر للسؤال سيكون محرجا للمسلم.. لكن عندما يعي المسلم هذه المغالطة فإنه يمكنه ببساطة أن ينقضها ويفقد الملحد الاستفادة منها. أمثلة على هذه المغالطة:

- **هل يستطيع الله خلق صخرة لا يمكنه حملها؟ (يسعى الملحد هنا لعدة أهداف منها هز قدسية الله في نفس المسلم، وإحداث التضارب المنطقي لديه، وجره إلى القول بعدم القدرة. فإن قال لا قالوا كيف لا يستطيع الخلق، وإن قال نعم قالوا كيف لا يستطيع الحمل.. والجواب على هذا السؤال يكون بتوجيه السؤال للملحد: كيف يكون الإله خالقا ويعجز عن خلقه؟ فالسؤال مبني على هذا الافتراض الخاطئ، ولا يصح السؤال بوجود هذا الافتراض الخاطئ.)**
- **هل يستطيع الخالق أن يخلق إلها أقوى منه؟ (وهذا السؤال أيضا يطرح كثيرا من قبل الملاحدة، وجوابه أن هذا السؤال مضروب من عدة جهات،**

فالسؤال يفترض وجود إله آخر مخلوق، والمخلوق لا يكون إلها، كذلك الإله الآخر لا يكون إلها وقد حدث من العدم، فهذه ليست من صفات الإله، ولهذا فالسؤال خاطئ، والسؤال الخاطئ يجب أن يصحح أولا قبل أن يُنظر في إجابته).

- **هل يستطيع الله أن يخلق مثلثا بأربعة أضلاع؟ (هذا السؤال يطرحه بعض الملاحدة على المتدينين، ويمكن الإجابة عليه أيضا باعتباره سؤالا خاطئا لأنه يفترض وجود مثلث بأربعة أضلاع، والمثلث بأربعة أضلاع هو مثلث معدوم غير موجود، والسؤال عن الخلق يعني السؤال عن الإيجاد، وبالتالي فالسائل هنا يسأل عن إيجاد العدم، وهذه سفسطة لا معنى لها).**

مغالطة التفكير التشبيهي الزائف False Analogy

وتسمى أحيانا بمغالطة الأنالوجي الزائف، وتقع عندما يقارن المرء بين أمرين ليس بينهما وجه للمقارنة، أو يكون بينهما تشابه سطحي وليس بينهما تشابه من الوجه المعني الذي تريد الحجة أن تثبته. أمثلة:

- **لأن هناك أنواعا متشابهة من الكائنات الحية فهي حتما تنحدر من سلف مشترك.**
- **المطرقة والمسدس كلاهما يمكن أن يتحول إلى أداة قتل، فلماذا يباح تداول المطارق ويحظر تداول المسدسات؟**

- العمال أشبه بالمسامير، والمسامير لا تؤدي عملها حتى تُطرق على رأسها، وكذلك العمال.

مغالطة رجل القش

القاعدة في هذه المغالطة هي أنه من الأسهل أن تنازل دمية من أن تنازل شخصا حقيقيا.. ولهذا فهي تقوم على أن ينحت المرء حجة ضعيفة هشة وينسبها إلى خصمه ثم يهجم عليها وينهيها ويحتفل بانتصاره على خصمه! أو يهاجم النواحي الأضعف في حجة الخصم ثم يدعي أنه قضى على الحجة بأكملها. وقد يلجأ المرء إلى اختلاق شخص وهمي ينسب إليه أقوالا وأعمالا ومعتقدات سيئة ثم يتظاهر بانتماء هذا الشخص إلى طائفة خصمه. ويدخل في ذلك أيضا اتهام الخصم بالتطرف ومخاطبته على هذا الأساس وهو بعيد عن التطرف. وفي بعض الأحيان يعمد المرء إلى «شيطنة» الخصم، وذلك بتغيير صفاته، فيحول حزمه إلى قسوة وحصافته إلى جبن وتحفظه إلى تزمت.. الخ. أمثلة على مغالطة رجل القش:

- من يطالب بتطبيق الشريعة فهو يطالب بقطع الرؤوس والأيدي.

- المطالبة بدعم الأمهات والمطلقات هو مطالبة بأن تنال بضع طفيليات عاطلات ما يناله مواطنون بكدهم وعرقهم.

مغالطة التجسيم

مغالطة التجسيم هي معاملة التصورات العقلية أو الذهنية على أنها أشياء فيزيائية ذات وجود حقيقي، فهي أشبه بميكانيكي يفك المحرك بحثا عن العشرين حصانا. والتجسيم ما هو إلا استعارة أخذت بعيدا عن التجريد إلى الواقع. لاحظ هذه الأمثلة التي عندما نخرجها عن إطارها الخيالي فإننا نقع في مغالطة التجسيم:

- **الطبيعة تبغض الفراغ. (الطبيعة لا مشاعر لديها)**
- **القوانين العادلة تداوي آلام المجتمع. (المجتمع ليس كائنا حيا يتألم)**

الاهتمام بالتأييد دون التفنيد (الدحض)

هناك ميل إلى جمع الأدلة المؤيدة دون الاهتمام بالأدلة المفندة، والأدلة المفندة هي معيار صحة النظرية أو الفرضية وليست الأدلة المؤيدة. فعندما نقول مثلا إن جميع الدببة القطبية بيضاء اللون، فإن عدد الدببة البيضاء التي نراها هنا وهناك ليست دليلا على إثبات تلك المقولة حتى لو وصلت إلى مئات الدببة البيضاء، لكن مجرد أن نرى دبا واحدا أسود فإن تلك المقولة تسقط تماما.

ولهذا فإن العلماء الآن يعتمدون في أهمية النظرية على قابليتها للدحض (falsification)، فإن كانت غير قابلة للدحض فإنه لا قيمة علمية لها.

هناك نظريات كثيرة جدا تفسر العلاقة بين الأجرام السماوية ولكن لم يلق لها العلماء بالا لأنه ليس هناك طريقة لإثبات خطئها، فلما أتى آينشتاين بنظرية النسبية وأخبرهم أن هناك ثلاث طرق لإثبات خطأ النظرية، قبلوها واعتمدوها.

إذن القابلية للدحض والتكذيب هو معيار العلم وليس القابلية للتأييد.

إغفال الاستثناءات

إغفال الاستثناء هو ضرب من التعميم، وهو استخدام القاعدة ذات الاستثناءات على أنها قانون مطلق. وليس هناك تعميم مهما اتسع نطاقه إلا وله استثناءات مقبولة يجب أن نعترف بها. وهذه أمثلة على عبارات خاطئة مبنية على إغفال الاستثناءات:

- سيارة الإسعاف التي قطعت الإشارة الحمراء تستحق المخالفة.

- لا شأن لي بنزيف أنفك فالتعليمات صريحة: غير مسموح لأي طالب بالذهاب إلى الحمام وقت الحصة.

- لا يسمح لسيارات الشرطة بتجاوز السرعة المحددة لأن تجاوزها مخالفة.

- ما دامت حرية التعبير مكفولة للجميع فإن من حقي أن أصرخ «حريق، حريق» في قاعة مزدحمة.

مغالطة سرير بروكروست

في الميثولوجيا الإغريقية كان بروكروست قاطع طريق يعيش في أتيكا، فإذا وقع الضحية في يده أكرمه غاية الإكرام وقدم له العشاء، ثم دعاه إلى النوم على سريره الحديدي، وما إن يستلقي الضحية على السرير حتى يوثقه بروكروست جيدا، ثم يبدأ بشد رجليه بقوة إن كان قصيرا حتى يتلفهما فتصل قدماه إلى حافة السرير، أو قطعهما إن كان الضحية طويلا حتى يتساوى طوله مع طول السرير.

ومن هنا جاءت تسمية هذه المغالطة، حيث يعمد المغالط إلى قوالبه الجاهزة ثم يصب فيها أدلته بطريقة تتلاءم مع تلك القوالب فقط.

ومن أشهر الأمثلة على هذه المغالطة ما نراه اليوم في تناول نظرية داروين (التطور بين الأنواع)، فكلما اكتشفت أحفورة أو ظهر دليل يخالف النظرية هرع التطوريون إلى صياغة تفسير ملائم يوفق بين هذا الاكتشاف وبين النظرية. والأمثلة متعددة منها على سبيل المثال التفسيرات المبتدعة للانفجار الكامبري الذي يناقض النظرية تماما. وبذلك تعاد قولبة الاكتشاف الجديد ليطابق النظرية بأسلوب تعسفي.

ومن الأمثلة ما ينتشر في الإعلام السياسي من قولبة الأحداث لتؤدي إلى تصورات مقصودة بعينها، كابتداع تحليلات وتفسيرات غير موضوعية لها يتلقاها العامة فتخلق في أذهانهم رأيا عاما مقولبا.

مغالطة ابتداع المصطلح

هذه الخدعة قديمة، وهي أنك عندما تعجز عن تفسير أمر أو ترى أنه ينقض توجهك فإنك تعمد إلى اختراع مصطلح جديد، وغالبا ما يكون هذا المصطلح ذا بريق خاص حتى يبدو وكأنه مبني على أساس علمي. من أمثلتها:

- **لاحظ بعض العامة في بلاد الإغريق قديما أنهم يتناولون الطعام فتأخذ منه أجسامهم جزءا فقط لتستفيد منه، وأما الجزء الأكبر فلا يستفاد منه، فأرادوا أن يعرفوا هذا الجزء المفيد من الطعام لكي يكتفوا بتناوله.. فأتوا إلى علمائهم وسألوهم عن هذا الجزء المفيد من الطعام. ولما عجز علماؤهم عن تحديد ذلك الجزء المفيد قالوا لهم إن الجزء المفيد من الطعام هو «الخاصية الغذائية» (nutritive faculty) لذلك الطعام. (بمعنى آخر: الجزء المفيد من الطعام هو الجزء المفيد من الطعام)**
- **من افتراضات نظرية التطور أن التشابه بين الكائنات هو دليل على وجود سلف مشترك لها، ولكن عندما ثبت وجود تشابه بين كائنات لا يجمعها سلف مشترك، اخترعوا اسما خاصا لهذا التطور وأسموه «التطور المتقارب** convergent

evolution»، فبدا هذا المصطلح للعامة وكأنه خاصية من خواص التطور مع أنه مجرد مصطلح معناه في الحقيقة ينقض النظرية.